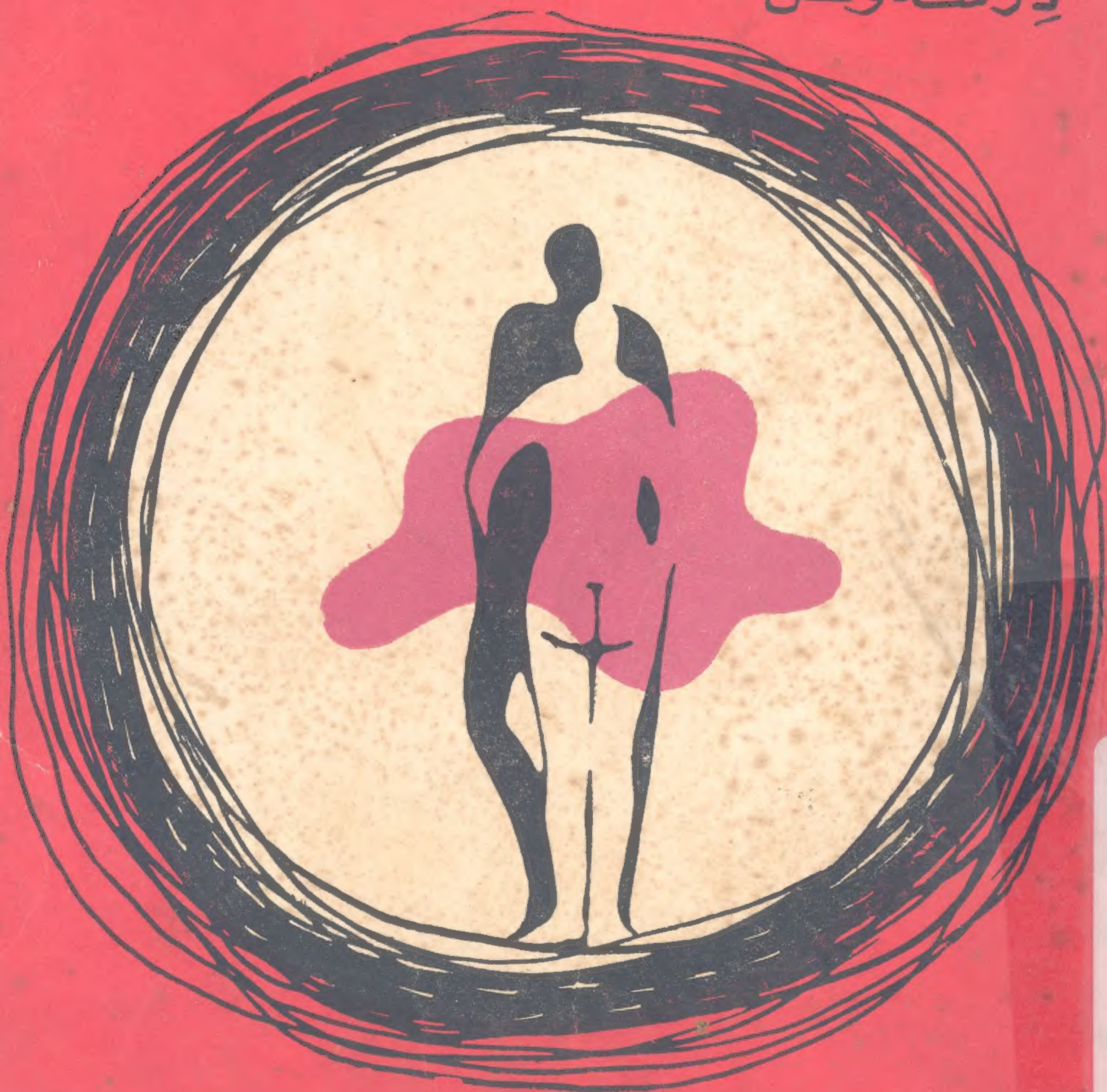


تفتح الأدب الجنسي المكشوف

هزري ميلدر

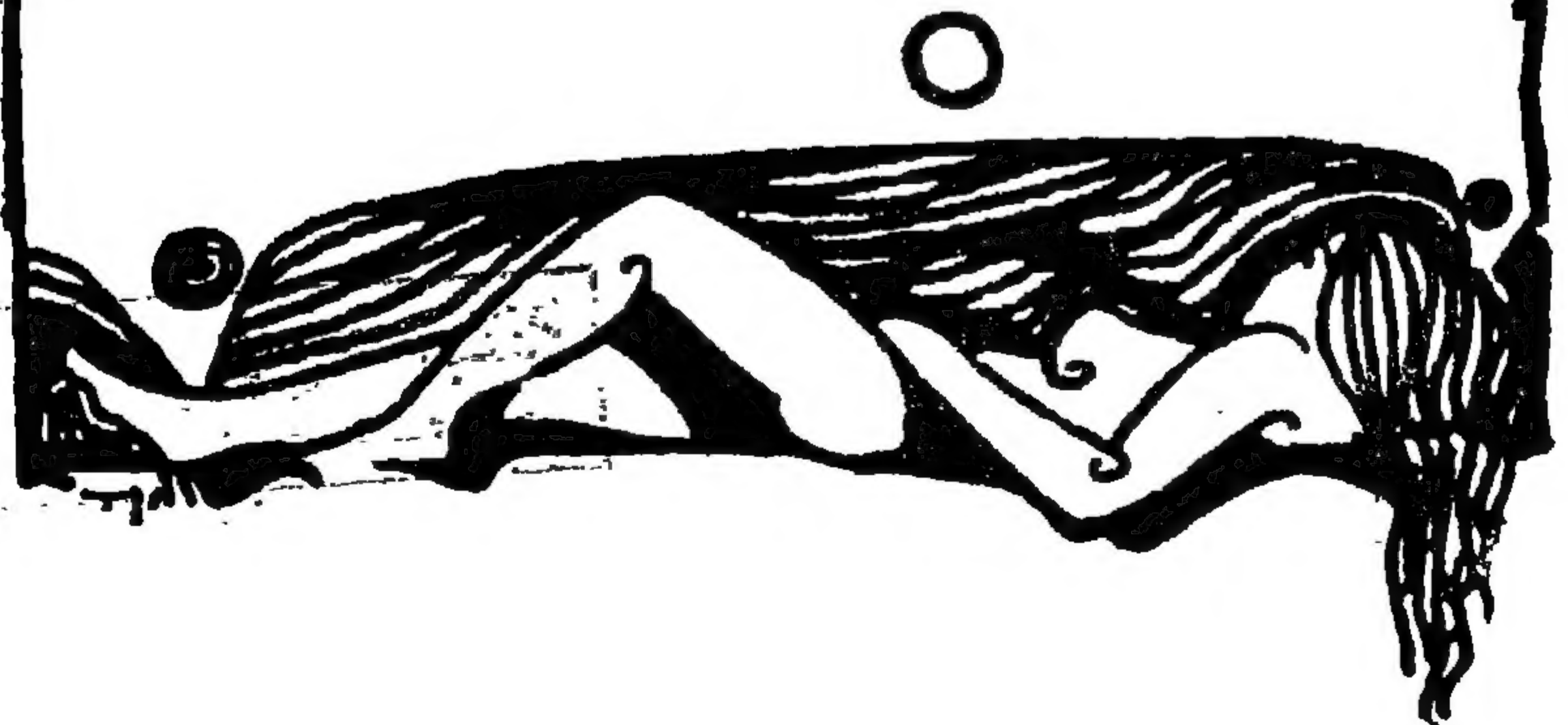
دراسة ونص



ميتييل مسعود

شيخ الأدب الجنسي المكشوف
هنري ميلر

دراسة ونص
ميلشيل مسعد



اھڙو ڏاڍو

إلى مصر .. جي ۱۱

ليست هذه دراسة مستفيضة عن أعمال هنري ميلر ، وإنما هي محاولة لإلقاء الضوء على فلسفته وأفكاره . وإن كتابات هذا الكاتب العظيم لمي خير مصدر لمعرفة أدبه ، وأي محاولة لتلخيص آراءه تبدو فاشلة وغير مجدية لأنها تعجز عن إبراز المعنى الفني للجنس كما صوره بنفسه ، ولا يسعى إلا أن أطلب الغفران من القارئ على هذه المحاولة .

م . م .

ملحمة فلسفية

لا إله .. لا دولة .. لا مجتمع ..

لقد مات الله ، والدولة لا تستطيع أن تعد الفرد بشيء ، والمجتمع كئيب وقاتل .

تسقط المؤسسات .. لتتخطم القيود .

الفرد مطلق .. الفرد حر .. الفرد هو مركز الكون وإشعاعه ..
الفرد هو هدف الخليقة .

دعوا الفرد يمرح .. دعوا الفرد ينطلق .. دعوا الفرد يقبل بشهية
على الحياة . إن النفس يجب أن تتحرر من رغبات الفرد المستحوذة عليه
والإنسان يجب أن يعيش في فوضى ، فالفوضى هي الحرية .

.....

الكلمات لنيتشه بالطبع ، فلم يكن أحد غيره يستطيع أن يهاجم
الدولة والمجتمع ، وأن يقيض كل القيم المعروفة ، ويثير كل هذه الضجة
التي حدثت في أوروبا .

والتحدث هذه المرة سيدة لا رجل ، والسيدة تدعى إماما جولدمان . .
والكان كاليفورنيا من عام ١٩١٣ ، والمستمع هو الفتى هنري ميلر
ابن الثانية والعشرين ، جاء في رحلة إلى كاليفورنيا من مسقط رأسه
مدينة بروكلين ، وانتهز الفرصة وذهب ليستمع إلى المحاضرة التي تلقاها
إماما جولدمان .

وفي قلق بالغ تلتقط أذن الشاب المراهف هذه الكلمات ، وفي
صدره تبحش شتى النزعات . نزعة إلى الفردية ، ونزعة إلى الحرية ،
ونزعة إلى السلبية ، وهي في حقيقة الأمر موجات فلسفية كان لها دوى
عال في أوروبا في مستهل القرن العشرين .

والفتى الشاب يخطط في ذهنه لروايات يكتبها ، فهو يريد أن
يكون أديباً ، وأن يكون أديباً مرموقاً له فلسفته الخاصة ، والسؤال
الذي وقف في حلقه : في أي الموضوعات يكتب ؟ وأي الأشكال يتخذ
لكتاباتاته ؟ لقد أخذ على نفسه أن يكتب عن حياته هو وعن تجاربه
الذاتية ، وعن علاقاته بالناس ، وعن المجتمع الذي يعيش فيه ، وعن
أمريكا وطنه ؟ .

وينكب الشاب على دراسة فلسفة نيتشه . ثم يترك نيتشه إلى
مدرسة فرويد السيكلوجية وهي المدرسة التي أعجب بها كثيراً ، ووجد
فيها منفذاً لتفكيره . .

واكتشف ميلر أن نيتشه يغور في الأعماق ، وأنه يمتص مزايا

المعاني والأشياء الحية ، وأنه يحصل لنفسه من الحقائق على أكبر قسط من الحقائق العادية جداً ، والأحداث الأكثر عادية ، ويجعل من كل هذا وذلك أكبر أثر ممكن على الآخرين .
واكتشف أيضاً من دراسته لفرويد ، أنها تعتمد على التحليل النفسي لتفسير الظواهر والسلوك الإنساني ، وأنها ترجع كل شيء إلى الجنس ، وإلى الكبت الجنسي .

ولكن الشاب يهز رأسه في قنوط ويقول : هذا لا يكفي .
وطفق يبحث لنفسه عن آفاق جديدة ، آفاق تلامس طبيعة العصر الذي يعيش فيه ، وتتمشى مع أفكاره ومبادئه .
ليأخذ عن نيتشه فلسفته عن الفرد ، وليأخذ عن فرويد سيكولوجية الجنس .

ولكن . . . ليجت عن إنسان آخر . . . إنسان جديد . . . إنسان يساعده على اكتشاف عالم آخر ، عالم يمكن فيه التوفيق بين جناحي التجربة اليومية : ارتفاعها ، وعمقها .

ويعجب ميلر بكتابات الكاتب الإنجليزي د . ه . لورانس ، فيأخذ عنه نظرية الاستقطاب بين الرجل والمرأة .

وهنا . . . يحس ميلر أنه قد وضع يده على حجر الزاوية . إن الاستقطاب في رأيه يمثل بطريقة رمزية الصراع الدائر بين التكوين البيولوجي والتكوين الثقافي للفرد .

ومرة أخرى يهز الشاب رأسه ويقول : حتى هذا لا يكفي أيضاً ! .

وأخيراً يجد هنرى ميللر ضالته المنشودة فى فيلسوف يهودى يدعى أوتورانك .

وأوتورانك هذا يقول أن الغريزة الجنسية هى مصدر الفن ، وأنها وثيقة الصلة بالحياة العادية البيولوجية للإنسان ، وإن الفن وليد الرغبة وأن الرغبة — سواء كانت مكشوفة أو مستترة — هى التعبير عن الفردية ، وعن الإنسان الفرد وحده ، وأنها ستظل دائماً بهذا الشكل ، بينما تمثل الغريزة الجنسية شيئاً مشتركاً ، شيئاً له صلة بالأعضاء الجنسية عندما تكون فى حالة توافق وهارمونى مع الرغبة الفردية خلال تجربة الحب ، أو فى حالة صراع دائم معه .

ويحس هنرى ميللر أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من هدفه .

ومرة أخرى يسمع اما جولدمان وهى تقول صارخة :

الزواج إستعباد للمرأة . .

حرروا العلاقات الإنسانية . . حرروا العلاقات العاطفية . . حرروا

النشوة الجنسية .

الزواج بدعة الرجل ، وهو من أفكار الكنيسة ، ومن

إختراع الدولة .

الحب طفل برىء أٌجرم فى حقّه . .

المجتمع الأمريكي مجتمع إستعباد ، ولا يبقى إلا كبت شهوة المرأة وجنسها .

جرروا الحب ..

الحب هو الحدث القائم على العاطفة ، وهو البحث عن الكيان والوجود الإنساني .

حددوا النسل .. عيشوا بطفل أو طفلين تتمكنوا من تقديم المأكل النظيف ، والسكن الصحى ، والتربية السليمة لها .

.....

وتثور زوبعة عاتية فى أمريكا حول هذا الكلام ..
ماذا تريد أن تقول جولدمان ؟

إنها تهاجم الزواج ، وتدعو إلى تحرير الحب من كل القيود ، وتهدف إلى إقامة علاقات جنسية غير مشروعة بدون أى رباط مقدس !!
ويبتسم الشاب المظفر بالنصر .

إنه الآن ينتقل من كاتب إلى آخر ، ومن فيلسوف إلى فيلسوف .
قرأ كتابات وولت هورتمان ، وأمرسون ، وتوماس مان ، وكايت ،
وبلزاك ، وجون جيوڤو ، وديستوفسكى وغيرهم . ودرس الفكر الأوروبى ،
وكون لنفسه مفهوماً جديداً للحياة يتمثل فى البحث عن الشخصية ، التى
لا يمكن اكتشافها إلا بعد الوصول إلى المصدر الغامض لوجودنا .

ولم يجد هنرى ميللر للتعبير عن هذه الشخصية أفضل من أسلوب

سرد حياته الذاتية وتصويرها من الطفولة حتى يتم له تكوين شخصية الفنان . . . كما لم يجد فلسفة أفضل من فلسفة أوتورانك ، الفيلسوف اليهودي ، لتكون مضمون هذا الشكل . فالتخلق أو الفن يأتي عن طريق تصوير السيرة الذاتية ، وهي ليست عملية تركيب الماضي الذي ولى ، وإنما هي إعادة صياغة تاريخ حياته بعد فحصه وتمحيصه ، وهذه العملية في حد ذاتها تعتبر عملية خلق كاملة لأنها تمكنه من أن ينتقى الأشياء ، وأن يعيد صيغها في قالب جديد وفق ما يترأى له ، وأن يلونها حسب هواه ، وأن يبدل منها ويغير كيفما يشاء ، وعن طريق تطوير العلاقات الأصلية للأحداث وللناس ، يستطيع خلق الشخص الذي يرغب الكاتب في أن يكون عليه في الوقت الحاضر . فالعملية إذن عملية خلق الذات عن طريق السرد الروائي للسيرة الذاتية للكاتب ، وهي الطريقة الوحيدة التي تمكن الفنان من تشكيل مثله الأخلاقية بمعزل عن الكيان الاجتماعي كله .

وفي مجتمع يتصف بالكبت الجنسي ، تتساوى فيه الحرية الجنسية مع الفردية المتخمة ، وتصبح فيه الحرية الجنسية هي المعادل للحرية الفردية .

وفي ظل ظروف معينة ، يمكن للفرقة الجنسية أن تتساوى بما يأتي به الفرد من خير ، وأن تمثل ، إذا قدر لها أن تمثل ، موت الفرد .

والإنسان لا يستطيع أن يتخلص من عبوديته للفراغ المتمثلة في

في الشيوع الجنسي إلا عن طريق الحب ، فالحب هو الذي يفرض على الفرد أن يضحي بكل أو بجزء كبير من ذاته من أجل من يحب .

وهكذا يتمكن ميلر من خلق تركيب درامي يمكنه من الحركة خلال حدود تجاربه ، مستخدماً في ذلك إزدواجية نيتشة ، واستقطابية لورانس ، ومرتفعاً بتجربته فوق حدود النسيج البيولوجي إلى مرتبة الإحساس بالآلهية .

ومن ثم ، فإن الصراع الدائر في رواياته لا بد أن يكون صراعاً قائماً بين الواقعية والمثالية ، لا بد فيه للإنسان من أجل أن يتحرر من عبوديته ويطلق العنان لقوى الخلق عنده ، من أن يترك أساساً حدود الجسد والوجدان ، وأن يصل إلى المثالي أو القدسي . ولا بد للبحث أن يكون راسخاً في الواقعية البيولوجية ، وهي الواقعية الكامنة في العاطفة الجنسية ، وإلا فإن قبضته على الواقعية ستخور ، كما سيجف فكره ويصبح فكراً مجرداً نظرياً .

وحتى يحافظ الرجل على التوازن بين الواقعية والمثالية ، فإنه محتاج إلى المرأة ، فالمرأة هي المخلوق الوحيد الوحيد الراسخة جذورها في الأرض .

وعملية الخلق هي الصراع القائم بين ما هو حيواني وما هو مقدس . وعندما نجعل الصراع يستمر بهذا الشكل ، فإننا نسلم أنفسنا للحياة وللموت أيضاً . ولكننا عندما نقبل الموت ، وعندما نوقف هذا الصراع ، فإننا نوحّد العناصر المتنافرة ، ونجد داخل أنفسنا الرجل والمرأة والأب

والأم . ولذلك ، فإنه في الجنس والعاطفة يضرب الإنسان جذوره بعمق
في صميم الواقعية .

فلتكن إذن كتاباته فاضحة .

ولتكن مكشوفة ، صريحة ، واقعية ، قحة ، تشير الاشمئزاز ،
وتبعث على الغثيان . .

وليس الأدب المكشوف بمجديد علينا فهو قديم قدم الزمان ، فكانت
في حضارة مصر القديمة والهند — كما يقول الأستاذ توفيق الحكيم —
رسم وتنحت في المعابد بعض الأعضاء التناسلية رمزاً للحياة . كانوا
يعرفون إذن هم أيضاً أن « لا حياة في الدين » . . بل إن الشعر العربي
القديم وكتب الأدب مثل الجاحظ وابن عبد ربه كانت تتحدث عن
الجنس كما تتحدث عن الطعام ، وكانت أكثر الكتب الأدبية لا تكاد
تخلو من باب للأطعمة وباب للباه .

ولكن الفكرة الشائعة وراء كتابة الأدب الفاضح قديماً كانت
تهدف إلى إحساس الإنسان بالقرف والاشمئزاز من الجنس والخوف منه ،
لما يرتبط به من عقد الذنب والخطيئة .

وجاء ميللر ليقوم بمحاولة مختلفة تماماً .

لقد جعل من الفضح أو الكشف جزءاً من الحياة ، وجزءاً مقبولا
من الحياة ، ولكن دون أن يفقد أى من الصدقة الأساسية للأعضاء
الأولية . وهو نفس ما يحدث للحب والجنس .

والجنس والحب لا يفرقان .
بل إن الجنس يجب أن يقوم أولا ، وبكامل طاقته قبل أن يشترك
الإنسان في علاقة حب .
وربط الحب بعلاقة جنسية أو العكس ، يمكن أن يشكل خطر
القضاء على القدرة .

والعجز الجنسي في العصر الحديث راجع — في رأى ميللر — إلى
كثرة تأكيد الحب والفضيلة و قدسية الزواج وطهارة الأمهات
والشقيقات ، ولا يمكن أن يأتى العجز الجنسي كنتيجة لتذوق الجنس
وممارسته ، بل إن العالم الآن قد نضب كما تنضب البغى ، والأمل معقود
على الجنس فى أن يعيد اصلاح ما أفسده الغير .

وصورة الرحم ، سواء كان الهروب من الرحم ، أو العودة إلى
الرحم ، تتخذ شكل الصورة الجنسية .
فالرحم متصل بالشخصية ، وبالكون ، وبالنضوج ، وبالتطور ،
وبالكفاح فى الحياة ، وبغزلة التأثير . وهو — فى رأى ميللر — يتخذ
أشكالا ثلاث :

رحم الأم ، ورحم الطبيعة ، ورحم الدنيا ، أو مانسميه رحم الحياة .
وكأن البطل ميللر قد أصبح الإله ديونسيوس إله الشهوة عند

الإغريق ، وقد أقاموا له احتفالاً ارتدى فيه عضو الإخصاب وبات يتقبل
القرايين من النساء والرجال على حد سواء .

وفي هذا الإطار ، وبهذا المفهوم الفلسفي ، يكتب هنري ميللر روايته
الأولى « مدار السرطان » عام ١٩٣٤ ، فيثير ضجة كبرى ، ويتلقاها النقاد
بضيق واشتئزاز . . وأصبح واضحاً أمام هنري ميللر أن مشواره طويل ،
وأن هناك فجوة بينه وبين قارئه ، وليس هناك مثلاً واضحاً على ذلك إلا
عندما حاول الأديب لورانس داريل عام ١٩٣٧ أن يساعد صديقه ميللر
على أن يقف على قدميه وذلك بأن يجد له بعض التأييد لدى الكتاب
الإنجليز الذين تبوأوا مكانة عظيمة في الأدب العالمي حينذاك .

فكر في الكتابة إلى ه . ج . ويلز ، أو إلى جورج برنارد شو ،
أو إلى هافلوك اليز . ثم استقر رأيه أخيراً على جورج برنارد شو . كان شو
معروفاً بتشجيعه للكتاب الجدد ، وتقديعهم إلى القراء بشيء من السخاء
قد يصل إلى حد المبالغة أحياناً .

وبحماس الشباب وطيشه ، قام لورانس داريل بارسال نسخة مهربة
إلى برنارد شو ، ولدهشة داريل البالغة ، رد عليه شو بخطابه بخط يده -
وهو شيء لم يفعله شو طول حياته - وكان ساخطاً وثاراً . كتب يقول :

« إن كان صديقك يتمتع بملكية الكتابة ، إلا أنه يفشل تماماً في
تحقيق أى قيمة فنية لأعماله . إن أعماله ماهى إلا تقرير حرفي

كتبها بلغة ركيكة ، مستخدماً الاقطة التصويرية للتعبير عن احساساته ، والذي نتج عن ذلك أن هذه الكتابة قد ولدت قذارة ، لا لهدف آخر غير هذه القذارة في حد ذاتها. أرجو أن تبلغ صديقك تحياتي، وقل له أن يسكن عن هذه الحماقة . مازالت أمامه مرحلة طويلة من الكفاح الشاق ليس لرجال البوليس يد فيها حتى يتمكن من تسجيل اسمه ضمن أسماء كبار الكتاب. أما أنت بالورانس.. فكن حذراً . أن يتهمك الناس بأنك أديب داعر ، لهو أمر معوق للغاية . ولكن أن تكون مروج كتب داعرة فهذا هو الشيطان بعينه .

أختتم خطابي بقول أنك مازلت شاباً صغير السن - بل كلا كما - ولذا فن الأفضل أن تفعل ما أقوله لك .

جورج برنارد شو

ولم يكن الأديب العظيم برنارد شو يفعل أكثر من التعبير عن روح العصر، ويعتبر خطابه هذا خير مثال للدلالة على الفجوة التي قامت بين ميللر والقاري، والتي كان علي ميللر أن يعبرها حتى يصل إلى قارئه المطلوب .

نشأة الكاتب



ولد هنري ميلار في مدينة بروكلين
في السادس والعشرين من شهر
ديسمبر من عام ١٨٩١ لأبوين من
أصل ألماني ، وقضى ما يقرب من

عشر سنوات من طفولته مشرداً في الشوارع والطرقات ، ولم يكن
له في هذه المرحلة أي أصدقاء أو رفاق سوى الصبية الذين كانوا يلعبون معه
في الشوارع والحواري . ولم يكن يحس بحب نحو والديه ، فقد كان أباه
يعامله معاملة جافة ، وكانت أمه تحرمه من عطفها وحبها وترى فيه الولد الفاشل .
والحياة في بروكلين غموماً حياة قذرة . فإلها جرون من كل بقاع العالم يفدون
إلى المدينة الصغيرة ويحولونها إلى ملجئ لإقامتهم . وفي سن السادسة عشر
تقع له أول تجربة عاطفية مع فتاة تدعى كورا سيوارد . وفي الثامنة عشر
يلتحق بمدرسة سيتي كوليج بنيويورك ، ولكنه يتركها بعد شهرين
لثورته على طرق التدريس . ويلتحق بشركة أطلس بورتلاند للأسمنت
حيث يقضي بها سبعة سنوات . وفي خلال هذه الفترة ، وهو لم يتعدى
الثامنة عشر ، يتعرف على امرأة في مثل سن أمه ، فيتخذها عشيقه له ، وبعد مضي
سبع سنوات على هذه العلاقة يقطع صلته بها بعد أن كان قد قرر الزواج

منها . وفي عام ١٩١٣ يقوم برحلة إلى غرب أمريكا حيث يلتقي هناك
بإما جولدمان التي غيرت مجرى حياته .

ويعود إلى بروكلين في عام ١٩١٤ ليعمل بمحل والده في بيع
الملابس الجاهزة . وفي سن السادسة والعشرين يتزوج لأول مرة في
حياته من بياتريس سيلفاس وكنز ، وهي عازفة بيانو ومدرسة موسيقى ،
كان لها تأثيراً كبيراً على كتاباته فيما بعد ، فهي التي تمثل شخصية مودي
في رواية « مدار الجدى » التي ظهرت عام ١٩٣٩ ، ورواية
« الجنس » — إحدى ثلاثية « على خشبة الصليب الأحمر » التي ظهرت
عام ١٩٤٩ .

وبدأ ميلر بعد ذلك يتقلد عدة وظائف مختلفة . التحق أولاً بالعمل
فترة قصيرة بمصلحة الحرب بواشنطن ، ثم التحق بمكتب البحث
الاقتصادي ، ثم بمحلات تشارلز وليام ، وفي عام ١٩٢٠ تقلد وظيفة
مدير عام المستخدمين بإدارة المراسلات بالشركة الغربية لاتحاد البرقيات
بعد أن عمل بها عدة شهور كمراسل ، ولكنه يستقيل من عمله بالشركة
عام ١٩٢٤ ليتفرغ للكتابة مصمماً على ألا يلتحق بأي عمل على الإطلاق
مهما كانت طبيعته . ولكن ما أن يحل عام ١٩٢٥ حتى يواجه ميلر أكبر
ضائقه مالية في حياته لدرجة أنه كان يسمى هذا العام بعام الفقر . كان
يضطر إلى بيع مقالاته للصحف حتى يكسب قوت يومه . وطلق زوجته
بياتريس بعد زواج دام سبع سنوات ، وترك لها طفلة ، إذ اكتشف

أنها امرأة غيورة إلى حد كبير ؛ وتزوج من جين آرت سميث التي كان قد تعرف عليها منذ عام سابق في إحدى صالات الرقص التي كانت تعمل بها، وهي التي افتتح معها حانة لبيع الخمر عام ١٩٢٧، والتي صورها في ثلاثية « على خشبة الصليب الأحمر » باسم « مونا » أو « مارا » وهي التي أوعزت إليه بالاستقالة من الشركة الغربية لاتحاد البرقيات عام ١٩٢٤ .

وأحس ميلر مع « مونا » بالحرية لأول مرة في حياته . لقد اختار الآن أن يؤدي عملاً كان يشده إليه باستمرار، وهو الكتابة . فترك عمله بشركة البرقيات التي كان يتقانى في خدمتها ، وإن كان يكن لها في قرارة نفسه كل بغض وكراهية .

غير أن حياته مع « مونا » كانت حياة حرية واستعباد في آن واحد . وتعتبر شخصية « مونا » من أكثر الشخصيات غموضاً في كتابات هنري ميلر . وقد تتساءل : ما هي حقيقة « مونا » تماماً ؟ ولكن من الصعب أن نجد إجابة على هذا السؤال . إن مونا هي التي أعطت لكتابات أبعاداً رمزية غامضة حتى أنها جعلت الواقعية ضرباً من ضروب المستحيل . ونحس أن « مونا » كانت على علاقة برجال آخرين ، وأنها كانت تحصل منهم على تقود كثيرة بطرق خفية . ما نوع هذه العلاقات ، وما طبيعتها ؟ هذا ما يتركه ميلر للقارئ ليكتشفه بنفسه إذ أنه لا يفصح عن طبيعة هذه العلاقات صراحة في كتاباته . أما علاقة

« مونا » بصديقتها « ستاسيا » التي جاءت لتعيش معها ، فهي علاقة غير وثيقة ويكتنفها كثير من الشك والغموض .

على أن الفترة من عام ١٩٢٤ -- ١٩٣٠ تعتبر فترة ألم ومعاناة شديدة بالنسبة لميلر ، وقد بلغت ذروتها عندما حاول ميلر الانتحار لشعوره بالتمزق والضياع مع « مونا » . إذ حدث أن طلب ميلر من صديق له يعمل طبيباً أن يعطيه بعض الأقراص المنومة ليتغلب على حالة الأرق التي كانت تنتابه ، وقد أعطاه الطبيب الأقراص التي طلبها ، فقرر ميلر أن يتناولها كلها جرعة واحدة ، وأن ينام على الفراش عارياً تماماً ، وأن يفتح النوافذ كلها ، فإن لم يمت بالمخدر مات بالبرد . ولكنه استيقظ من النوم بعد ١٢ ساعة ، ولدهشته اكتشف أنه لم يمت ، وإنما أصبح في غاية من الحيوية والنشاط ! !

وكانت لـ « مونا » اليد الذهبية في أن ينال ميلر حريته كاملة ، فهي التي صحبته في رحلة إلى أوروبا عام ١٩٢٨ مستخدمة في ذلك النقود التي حصلت عليها من أحد « ضحاياها » ، ثم عادا إلى نيويورك عام ١٩٢٩ ، ولكنه لم يلبث أن سافر إلى أوروبا بمفرده عام ١٩٣٠ بعد أن اقترض عشرة دولارات من أحد أصدقائه . وزار أسبانيا ، ولكنه عاد إلى باريس حيث مكث بها فترة طويلة من الزمن وتعرف على عديد من

الشخصيات الأدبية الهامة . وكانت حياته في باريس تتصف بالفقر والكفاف ، وهي الصورة الخلفية لكتابه « مدار السرطان » حيث كان يجول متسكعاً في شوارع باريس ، وينام حيث يجد مكاناً لراحته ، ويأكل خبز يومه بيومه ، ويعمل مصححاً بجريدة شيكاغو تريبيون تارة ، ويعطى الدروس الإنجليزية بمدرسة اليسيه خلال الشتاء تارة أخرى .

وخلال عامان (١٩٣١ و ١٩٣٢) من الفقر والذل والبؤس ، عكف ميلر على كتابة روايته « مدار السرطان » وبعد أن تم له نشرها في عام ١٩٣٤ ، قرر أن يتخذ لنفسه عملاً . وأقام فترة بشقة صديقه ألفريد برليه في كليشي ، وزار معه مدينة لو كسمبرج . على أنه قام بزيارة خاطفة إلى أمريكا في الفترة من ديسمبر ١٩٣٤ حتى مارس ١٩٣٥ حيث أجرى في مكسيكوسيتي توكيل طلاق لزوجته جين آرت سميث أو « مونا » ، ثم عاد لزيارة نيويورك من يناير إلى أبريل من عام ١٩٣٦ حيث كان يعمل بالتحليل النفسي وبممارسة إحدى الصحف اليومية ، ثم نشر في نفس العام روايته « الربيع الأسود » .

وفي عام ١٩٣٧ التقى بالأديب لورانس داريل صاحب رابعية الإسكندرية الشهيرة ، ونمت بينهما صداقة قوية ، وهو الذي صحبه في رحلة إلى لندن حيث تعرف بمشاهير الشخصيات الأدبية مثل ت . س . اليوت . وفي نفس العام أصدر كتابه « العودة إلى أمريكا »

وفي عام ١٩٣٨ أصدر كتابه « ماكس والبلاعم البيض » وبدأ الكتابة لبعض الصحف والمجلات .

أما كتابه الثاني العظيم فهو «مدار الجدى» وقد أصدره عام ١٩٣٩، وفيه يصور ميللر حياته الخاصة منذ أن حاول تثبيت أقدامه كأديب ، وزواجه الأول من عازفة البيانو « ياتريس سيلفاس وكنز » أو «مودى». وتصور ثلاثية «على خشبه الصليب الأحمر» حياته بعد « مدار السرطان » ، وتأخذنا إلى باريس . وقد ظهر المجلد الأول منها في جزئين بعنوان « الجنس » *Sexus* عام ١٩٤٩ ، وظهر المجلد الثاني في جزئين أيضاً بعنوان « الضفيرة » *Plexus* عام ١٩٥٣ ، وظهر المجلد الثالث والأخير بعنوان « الشبكة » *Nexus* عام ١٩٥٩ . ويقول ميللر أن مسئوليته كأديب قد انتهت بظهور هذه الرواية.

وتندلع نيران الحرب العالمية الثانية ، فيضطر ميللر إلى مغادرة فرنسا ، ويذهب إلى اليونان ليقوم مع صديقه لورانس داريل في جزيرة كورتو بناء على دعوة تلقاها منه . ويصور ميللر حياته في بلاد اليونان في كتابه « تمثيل مورو سي » الذي ظهر في عام ١٩٤١ . وتعتبر الفترة التي قضاها في بلاد اليونان من أخصب فترات حياته ، وأكثرها نضوجاً، إذ فيها تحرر ميللر تماماً من كل القيود التي كانت تكثفه.

ولكن الحرب تطارده في اليونان مثلما طاردته في فرنسا من قبل ،
فلا يجد مفرأ من العودة إلى وطنه أمريكا ، فوصلها في مارس من عام
١٩٤٠ حيث التقى بأصدقائه القدماء ، وحيث أعطت له الحكومة بيتاً في
كاليفورنيا قبله في سرور. وعن هذه الرحلة كتب ميللر كتابين : الأول
بعنوان « الكابوس المكيف بالهواء » ونشر في عام ١٩٤٥ ، والثاني
بعنوان « تذكر أن تتذكر » وقد نشر في عام ١٩٤٧ .

ولقد أقام ميللر عدة معارض للوحاته المائية، فقد كان رساما هاوياً.
ومن أشهر معارضه المعرض الذي أقامه في لوس أنجيلوس عام ١٩٤٤ ،
وهو العام الذي يعتبر عام النجاح والشهرة ، مثلما كان عام ١٩٢٥ عام
الفقر والبؤس .

وتزوج ميللر للمرة الثالثة من جانيتا م. لبسكا عام ١٩٤٤ ، ونحن
لا نعرف عن هذا الزواج إلا القليل. ولكنه كان زواجا شؤماً على هنري ميللر
انتهى بأن انفصلت عنه لبسكا تاركة له طفلين ، ويصور ميللر هذه الفترة
من حياته في روايته « بيج سير » التي نشرها عام ١٩٥٦ . ثم تزوج للمرة
الرابعة من إيف ماك كلير عام ١٩٥٢ ، انتهى أيضاً بالطلاق ،
وهو يعيش حالياً وحيداً في نيويورك ، وإن لم يستقر في مكان معين بعد .

ميلر الشجاع



ليست شجاعة ميلر ككاتب
مردّها إلى المحاولة الجريئة التي قام بها
لتصوير الجنس بصورة مكشوفة ،

وإستخدامه لغة بسيطة سهلة وكلمات عادية شعبية تضعنا في مأزق أمام محاولة
ترجمتها إلى اللغة العربية لأننا إذا قمنا بهذه المحاولة فلا بد أن نترجمها إلى
اللغة العامية والا فقدت الكثير من قيمتها الفنية . ولكن الشيء الفريد
عن شجاعة ميلر هو موقفه كإنسان من أوضاع وطنه أمريكا .

فالمعروف أن ميلر عاش حياة مشردة في طفولته ، وأنه عانى كثيراً
من شظف العيش وأن الإقامة لم تستتب له في أمريكا إلا مؤخراً ، وأنه قضى
معظم حياته في أوروبا باحثاً عن تكوين ذاته كأديب ملاقياً في ذلك شتى
أنواع المعاناة والألم . ولم يكن ذلك لسبب جنائ ، وإنما لأنه في بساطة ثار
ضد بلده ، وهاجم تقاليد وطنه ، ورجعيته ، وكتبه للحرّيات بمفاهيمها
العريضة . ولذا فهو يدير ظهره لوطنه بعد أن وقف بكل شجاعة وسب الشعب

الأمريكي ورماد بأرتع الصفات وأقذرها بأمل أن يتغير المجتمع الأمريكي يوماً ما ، وأن يصحو الشعب الأمريكي من غيبوته .

وعن بلده أمريكا ، يقول ميللر أن أمريكا بلد عظيم ورائع من الناحية الطبوغرافية ، ولكنه في نفس الوقت بلد نحيف . لماذا هو نحيف ؟ لأننا — في رأى ميللر — إذا جلنا بأنتحاء العالم ، فإننا لن نجد بلداً آخر تتسع فيه شقة الإتصال بين الإنسان والطبيعة مثلما هي في أمريكا ؛ فالحياة موحشة ، ويصل فيها القلق إلى قمته .

وفي مقدمة كتابه « الكابوس المكيف بالهواء » ، وهو الكتاب الذى يصور فيه ميللر رحلة عودته إلى أمريكا إبان الحرب العالمية الثانية ، يقول ميللر أن الشعب الأمريكى يعتبر نفسه من الشعوب المتحررة الديمقراطية ، وأنه شعب عاشق للحرية ، وأنه قد تحرر من كل الأهواء والكراهية . وهذه المسألة — فى رأى ميللر — مسألة مائعة ، لأن الشعب الأمريكى فى الواقع شعب متعجرف همجى ، يسهل تعبئة مشاعره وروحه بأفكار الديمقراطية وبالكتابات الصحفية وبالمواعظ التى يلقيها رجال الدين ، وبالمظاهرات الصاخبة . وهو يتساءل : ماذا فى استطاعة أمريكا أن تقدم للعالم بالإضافة إلى ما تقدمه إليه بالفعل من أهوال ومخاطر نتيجة لتقدمها الجنونى ؟ إن إدعاء الشعب الأمريكى بأنه يعيش فى مجتمع حر إدعاء كاذب ، وجريمة لا تغتفر . فأمريكا التى كانت

تعتبر في الماضي أرض المستقبل وبلد الحريات ، أصبحت الآن
بلد العرق والجهد والكفاح الزائف ، ولم تعد البلد الذي
يناصر المظلومين ، فالمظلومين ليس لهم مكاناً في أمريكا . . بل إن
أمريكا أصبحت تضم الآن ملايين الرجال والنساء المشردين الذين يجوبون
الشوارع والطرق بلا عمل كالخنازير . لقد فقدت أمريكا روح الديمقراطية ،
واختفى من أرضها الزعماء المخلصون .

هذا ما قاله هنري ميلر منذ ثلاثين عاماً ، ولا نجد في هذا
القول غير الصدق والاخلاص ، ولعله كان يتنبأ بحالة العالم التي هي عليه
الآن . . العالم الذي أصبح فوق فوهة بركان بسبب تقدم أمريكا الجنوني ،
وبسبب أسلحتها الفتاكة ، وحروبها الإلكترونية ، ومحاولتها السيطرة على
شعوب العالم وكبت حرياته . ولذا ، فإن هنري ميلر ليس كاتب روائي
ناقم أو وساخط على بلده فحسب ، وإنما هو إنسان يحس بمشا كل
عصره ، ويعبر عنها بصراحة تامة تبدو فيها وضوح الرؤية .

إن أمريكا كابوس ، وستظل دائماً كابوساً حتى ولو كانت مكيفة
الهواء . إنها تشعل نيران الحرب ، لأن الحرب في نظرها شيء جميل ،
تدافع به عن ذاتها ، وعن وجودها ، وعن حالتها الراهنة ، تلك الحالة
التي لا توجد إلا في عقول ساستها . ومالم يقيم الشعب الأمريكي باكتشاف

الحقائق الكامنة فيه ، فإنه سيظل ينتقل من فشل إلى آخر ، وستظل أمريكا تترقد على سطح واحد وفوق نقطه واحدة سواء كان يسيطر عليها الديمقراطيون أو الجمهوريون أو حتى الفاشستيون أو الشيوعيون .

وميلر له رأى فى الحرب .

إن الحرب شكل من أشكال الجنون ، وهى إما من أنبل الأشياء فى الوجود أو من أقذرهما . ولأن الحرب جنون عام ، فالعقلاء لا يقوون على الوقوف ضدها . وحتى يحس الإنسان بطعم السلام ، عليه أولاً أن يتذوق مرارة الحرب . وعلى الإنسان أن يسير فى طريق طويل من البطولات حتى يدرك فى النهاية أنه عاقل وحكيم .. لا بد للإنسان من أن يضحي بعواطفه أو أن يكون ضحية عواطفه بمعنى أدق حتى يرتقى فوق هذه العواطف . ومن ثم ، فلا بد من وجود صراع يتضمن شىء أقوى من الصراع من أجل الوطن أو من أجل المبادئ السياسية أو الأيديولوجية . إن الحرب الحقيقية هى ثورة الإنسان ضد طبيعته المتخمة ، وهى حرب لا تراق فيها دماء يأمم التطور السلمى ، وإنما يرتقى فيها الإنسان إلى مرتبة الملائكة ، وقد ينال النصر ، وقد يهزم كغرد ، ولكنه يجب دائماً أن يكون واثقاً من النصر لأن العالم كله له يقف وراءه .



ميلر الطفل والمدينة المعقدة

يجمع النقاد على أن مدينة بروكلين
التي ولد فيها هنري ميلر كانت ذات
أثر كبير على كتاباته ، ولا بد لأي

قارئ أو دارس لأدب ميلر أن يلم بالجو الذي كان يحيم على المدينة ،
وبظروفها الاجتماعية ، ومناخها الفكري لأن كل ذلك محفور تماماً في
عقل الكاتب ولأنه كان يشكل الخلفية الذهنية لكتاباته العديدة .

قبل عام ١٨٩٠ ، أي قبل أن يولد هنري ميلر بعام واحد ، لم تكن
مدينة بروكلين إلا مدينة هادئة مثل كل مدن الدنيا التي لم تتطرقها الصناعة
بعد ، وكان ميلر وهو طفل يملأ عينيه بمنظر المدينة العذراء ، ويتنفس
هوائها البكر قبل أن تلوثه مداخن المصانع وأقدام العمال وانقاس
المهاجرين الذين أتوا من شتى بقاع العالم .

كان ميلر وهو طفل يحب أن يسير في شوارع وطرق بروكلين ،
فهذه من الأشياء التي أثرت في بناء شخصيته ، وله في ذلك رأى خاص
ينفرد به عن دون الكتاب : أن تولد في الشارع هو أن تعيش متجولاً
طول حياتك ، وأن تعيش حراً .. إن الولادة في الشارع هي الحوادث ،
وهي الأحداث ، وهي الدراما الحية ، وهي الحركة ، وهي الحلم الذي يفوق

كل حلم . إنها عملية هارموني لكل المتناقضات التي تعطى لتجولاتك
توكيدا ميتافيزيقيا . في الشارع تتعرف على حقيقة الأدمين ، ومن ثم
فإنك تخلقهم إن عاجلا أو آجلا ، وكل مالا تجده في الشارع فهو مزيف
وغير حقيقي ، ولا يوجد إلا في الكتب ، أي في الأدب .

وتربى ميلر في جو ألماني ، فوالداه كما سبق الإشارة ينحدران من
أصل ألماني . وكان ميلر يتكلم الألمانية والإنجليزية بطلاقة حتى بلغ سن
دخول المدارس ، وكان يعيش وسط قوم من مختلف الجنسيات ، فقد بدأت
بروكلين تستقبل وفود المهاجرين من العمال الفنيين والمهرة في بادئ الأمر ،
ثم بدأت تستقبل العمال العاديين فيما بعد . وكان هؤلاء العمال يقدون
إليها من ألمانيا وبولندا وإيرلندا ، ثم وصل إليها اليهود المهاجرون من
وسط أوروبا . وأخذت الصناعة تنتشر بأقصى سرعة في بروكلين ،
حتى أن ميلر أحس بأن مدينته المحبوبة قد تحولت إلى امرأة مومس .
بدأت تقام مساكن للعمال ومساكن للفقراء ، وأخذت الأحياء
القديمة الجميلة تهدم وتقام مكانها مباني أخرى حديثة ، وأصبحت
المدينة تجمع بين المتناقضات في مظهرها وأناسها ، وبدأ سكانها
الأصليون يندثرون لاختلاطهم بالمهاجرين الجدد على الرغم من محاولتهم الإبقاء
على تقاليدهم . وفي عام ١٩٠٣ أقيم جسر يربط بين مدينة نيويورك وحى
ويليامزبرج ، وهو الحى الذي ولد فيه ميلر ، وبإنشاء هذا الجسر انتهت آخر

لمسة من لمسات المدينة الهادئة الجميلة ، إذ عن طريق هذا الجسر ،
يشاهد الطفل ميلر آلاف المهاجرين الجدد وهم يعبرونه ، لتتضخم بهم
المدينة ، وتعجز عن استيعابهم ، وتتعدد بهم الحياة ، وتزداد المشاكل ،
وتتطرف المدينة بالخير إلى أقصاه وبالشر إلى أقصاه . ولكن ميلر لم
يكن ينظر إلى الخير على أنه خير ، وإلى الشر على أنه شر ، وإنما كان
يعتبر ذلك مظهراً من مظاهر الحياة اليومية ، وإن كان قد بدأ يضيق
بالمهاجرين الجدد لأنهم خلقوا حياة جديدة كانت ثقيلة على قلبه الصغير ،
ولأنه كان يحس بأنه ليست لهم أى طموح أو تطلعات ذاتية ، فنمت
فى قلبه كراهية شديدة نحوهم . وكان لأبيه شلة من الأصدقاء ،
كانوا يحسنون معه الخمر كل ليلة، وكانوا يتحدثون فى موضوعات شتى بكل
ذكاء ، ولكن الذكاء هنا لم يكن يعنى الفكر، فوالده أصلاً لم يقرأ كتاباً
واحداً فى حياته . ولا نستطيع أن نحدد بالضبط موضع قدمى ميلر
الشاب، ولا يسعنا إلا أن نضع فى تصورنا المؤثرات التى كانت تحيط به.
ثقافة المهاجرين .. التقاليد الرجعية .. ألوان الطعام المختلفة الجديدة ..
نفس رائحة الطعام التى لا بد كان لها تأثيراً خاصاً عليه. كل هذه المؤثرات
ساعدت على إدراك المذاق الشخصى لميلر وفلسفته الشوارعية ، وبروكلين
تواجه مشكلة امتصاص المهاجرين وأمركتهم ، ثم تلفظ عن نفسها
غبار الفقر ، وتسير فى طريق الغنى والمال .

هذا التحول الخطير نجده في كتابات هنرى ميلر على ثلاثه مراحل :

١ — حياته الأولى في حي ويليامزبرج ، وهي الصورة التي نجدها في روايته « الربيع الأسود » التي صدرت عام ١٩٣٦ ، وكتاب « مدار السرطان » الذي صدر عام ١٩٣٤ .

٢ — مرحلة غير محددة تماما ، وإن كان ميلر يسميها مرحلة « شارع الأحزان » ويقصد به شارع « ديكاتير » . وأغلب الظن أن هذا الشارع يرتبط في حياته بعلاقة حب في طور المراهقة ، وربما يكون الحزن هنا هو الحزن على ما فقده في حياته الأولى في بروكلين التي كانت تروق له .

٣ — الفترة من عام ١٩٠٩ — ١٩١٧ أى بعد أن ترك المدرسة وتزوج لأول مرة في حياته من بياتريس ، وهي الفترة التي تتصف بمزاولة عدة أنشطة كاللأكل والشرب والجنس ، وقراءة كتب الأدباء والفلاسفة الأوروبيين الذين شككوا فلسفته فيما بعد .

على أننا يجب أن نؤكد أن ميلر قد تعلم الكثير من الشوارع . إن منظر صدر امرأة رجراج يثيرنا ، وهو صدر مترهل لموس أنمحت بصدرها في ليلة مطيرة ، وكشفت لنا لأول مرة عن العجب الكامن في نهديها الحاليتين . وإذا ما أثارنا التفكير في منظر عمر ميلل بالمطر أو الماء ، فإن السبب راجع إلى أننا عند نهاية مرحلة عمرنا من

السنة السابعة يأتي هذا المنظر ليكون بمثابة تحذير لنا لما قد يحدث في المستقبل عندما نقف محققين بلا تفكير في السائل اللامع من مرآة الشارع .. حتى الرائحة لها تأثير كبير أيضاً . رائحة الخبز ، ورائحة بول الخيول النفاذة في الاسطبلات ، ورائحة الحديد المتوهج بالنار واختلاطه باللحم عندما يقوم الطبيب البيطري باخضاء الخيول ، ورائحة شعر المرأة وهي تغسله الذي يشبه رائحة بركة عفنة ، والتميز بين روائح العطور المختلفة، وبين الأذواق ، وبين الناس ، وبين الأحداث . . كل هذه الأشياء كانت موضع إحساس شديد عند ميللر لم يفقده أبداً ، ونلمسه بوضوح في كل كتاباته ، فهو لم يترك حقيقة واحدة أو شعوراً واحداً دون أن يسجله بقلمه .

ويصور ميللر إحساسه بهذه الحياة في كتابه « مدار الجدى » ، حيث يحدثنا عن قيامه بعملية جنسية كاملة في ممر الردهة ويتذكر حياته عندما كان يسير متسكماً في الشوارع .

ولكن الصورة سرعان ما تتغير ، وتصبح هذه الشوارع قذرة ممعنة ، تفقد كل سحرها وجاذبيتها ، ويتحول ميللر عنها تماماً .



ميلر وقضية الشكل الفني

لم تكن قضية الشكل الفني تهتم ميلر كثيراً ، بقدر ما كان يهيمه أن يبعث في رواياته بأخسيس الإنسان بالحياة عن طريق تسجيل الصراع لعملية الميلاد

بمنتهى الدقة . ولقد اختار لنفسه أن يكتب بطريقة السرد الذاتي ، أو الرواية الذاتية على الرغم من أن كتبه تحمل وحدة الشكل والبناء . ولقد عاب عليه النقاد استخدامه لهذا التكنيك لما فيه من ضعف ، ولقد دافع عن نفسه بقوله بأنه ليس مثل إرنست هيمنجواي الذي يكتب بالسنتيمتر ، كما أنه ليس في نفس الوقت بالكاتب الغافل الذي تفوته لهجة الكتابة من ذات المعون . فالشكل الذي اختاره لروايته هو شكل « الرواية الذاتية » . . والرواية الذاتية اصطلاح من عنده ، لأنه شكل — على حد قوله — يناسب مزاجه تماماً ، ويمكنه في النهاية من خلق كتابة ذاتية مغايرة للكتابة التي كانت عليها من قبل .

ويقرب ميلر بهذا التكنيك من تكنيك كتابة المذكرات ، وإن كان يتميز عنه بأن البطل الراوى هو موضوع العمل الفني في نفس الوقت . فالكاتب يغور إلى أعماق الأشياء ، أو بمعنى أدق ، يغور

في « بطن الحوت » ليكتشف أسرار النفس البشرية ، ويكتشف الموضوع الذي يعالجه ، ثم يعيد علينا سرد قصة حياته . فالمادة هنا هي ذكريات حياته الخاصة ، ذكريات الماضي والحاضر ، حتى استطاع في النهاية أن يصبح أديباً .

وتكشف لنا عبارة « بطن الحوت » عن العلاقة بين الفن والحياة . فالغور في بطن الحوت هو النزول إلى الموت . ولكن النزول إلى الموت بالإرادة ، يقود إلى اكتشاف النور فجأة . فالحياة في بطن الحوت هي حياة التناقض التي يعيشها الكاتب أو الفنان ، وهي شكل من أشكال الحياة في الموت . أما الصعود إلى الحياة مرة ثانية فلا يعني الصعود إلى الحياة العصرية التي يعيشها الإنسان ، وإنما يعني الصعود إلى الحياة الخلاقية ، أو بمعنى أصح ، إن استعارة الفنان لعبارة « بطن الحوت » لن تجعله يصعد إلى الحياة أبداً ، فلقد أخذ معه الحياة إلى بطن الحوت ، وصنع لنفسه عالماً جديداً هناك .

وفي هذا الإطار ، كتب هنري ميلر كل رواياته .

والبحث عن شخصية الإنسان في الحياة ، هو مفتاح الشكل الفني في الرواية الذاتية . وهنا يشبه ميلر شعراء العصر الرومانتيكي إلى حد كبير ، وذلك في محاولة الغور إلى المستوى الأدنى للحياة النفسية ، والخروج عن الذات لاكتشاف العلاقة القائمة بين الفرد والكون ، والتفاعل الناشئ بين الفن والحياة .

والرواية الذاتية ذات طابع مميز يختلف عن الأدب الخيالي والأدب التركيبي ، كما يختلف أيضا عن الأدب الشخصي والسيرة الذاتية .

ويستخدم ميلر مستويات عدة من التكنيك : القصة الواقعية ، والقصة الفانتازيا أو تنابع الاحلام . وتحمل القصة الواقعية ثقل المضمون اللاشعوري ، وتظهر المادة اللاشعورية في أعماله بطريقة غير مباشرة على هيئة أحلام أو تحقيق رغبات مكبوتة لا شعورية .

وإذا كان النقاد يطلقون على ميلر لفظ الكاتب الواقعي ، إلا أنه ليس واقعياً بالمعنى المفهوم لكلمة الواقعية . فهو رومانسي ، وإن كان لا يميل إلى المثالية ؛ وهو كاتب رمزي من الدرجة الأولى ، ينقب في أغوار النفس البشرية ، ويبحث عن الدوافع والمؤثرات التي ينتج عنها الحدث الإنساني ، مؤمناً بأن هذه الدوافع والمؤثرات شديدة الصلة بالأعضاء الجنسية ، ولذا فإن منسوب الواقعية عنده عميق الجذور في مسألة العقد البيولوجية والوجود السيكلوجي أيضاً .

والموضوعات التي يعالجها ميلر في كتاباته موضوعات حيية ، وموضوعه الأساسي الذي تدور حوله كل رواياته هو أن الفرد يجب أن يعيش في حرية واستقلال تام . وفي هذا المضمون يقوم ميلر بمحاولة اكتشاف إمكانات وحدود الإنسان الفرد خلال رحلة الحياة .



ميلر كاتب الجنس المكشوف

صادر الرقيب معظم كتابات هنري ميلر لأنها من الأدب المكشوف الإباحي الفاضح ، وإن كانت هناك بعض الكتب التي نشرت له في أمريكا .

ويقول ميلر أن كتبه ليست عن الجنس ، ولكنها عن تحرر الذات البشرية . وإذا كان هناك قارئ مغروراً يتحول عن قراءة كتبه لأنه يجدها كتباً داعرة ، كتبت بلغة المراهقين ، فامن شك أنه يقع في خطأ كبير ، لأنه لو تعمّن قليلاً في قراءتها لغير رأيه على الفور .

وتذكرنا كتابات هنري ميلر بالعبادات القديمة التي كانت تقدم فيها القراءتين لعضو الإخصاب عند الذكر ، وهي عبادة سبقت نظامنا الديني بآلاف السنين ، وبشكلت قبل ظهور المسيحية والإسلام العنصر الأساسي لكل العبادات الدينية القديمة في العالم أجمع . ولقد وجد الناس في عضو الإخصاب أو في صورته رمزاً كبيراً على القوى الخلاقة التي تهب الحياة للطبيعة ، ولم ينظروا إليه على أنه أداة من أدوات الخطيئة أو الزنا . وتتجلى هذه العبادة في كتاب « الجنس » *Sexus* حيث يظهر فيها عضو الإخصاب على أنه رمز للسمو على قوى الطبيعة وليس على أنه رمز للخضوع لها . ويرى ميلر أن الرقصات الجنسية التي كانت تدور حول عضو الإخصاب ما هي في الواقع إلا روح تعمل من داخل الغريزة ، وإذا

كان الإنسان القديم قد عرف طريقة عبادة عضو الإخصاب ، فليس ذلك إلا تعبيراً عن محاولته السمو على اضطرابات الخلق . ولذا ، فإن هذه الرقصة تعتبر من انتصارات الإنسان القوية في الحياة .

ولقد وجد ميللر في أفريقيا رقصة شائعة بين القبائل تتخذ شكل الشخصية المجهولة، وأنها ذات هيئة قدسية وفجور في ذات الوقت ، إذ ينتصب فيها عضو الإخصاب حتى يصبح قطعة من الحديد الصلب ، ليست موجهة إلى امرأة معينة بالذات، وإنما هي موجهة إلى أى عضو نسائي في القبيلة حيث تقف الأرواح جماعة في طابور النكاح . وعندما يسمو الإنسان بروحه فوق عالم الحيوان ، ويدخل في طقوس من عنده يتنكر لها ، فإنه حينئذ يدعى بأنه قد جعل من نفسه مخلوقاً سامياً فوق مستوى المضاجعة الجنسية في حد ذاتها . وعليه ، فإن رواية « الجنس » Sexus تعتبر من هذه الناحية أعلى نقطة تصل فيها رقصة الإخصاب إلى قممها.

ولقد اكتشف ميللر أن العالم كله عالم حساس ، كما اكتشف أن العالم يسير في رحلة نحو الوجدان المطلق الذي يعنى الله ، فالإنسان - في رأى ميللر - هو الله على هيئة جنين ، فإذا ما وصل إلى هذه النقطة ، انتهى اليأس من الحياة . وتحت قاع السلم ، أى عند الحيوان المنوى ، توجد الغبطة الموجودة أعلى السلم ، أى عند الله . فالله هو حاصل جمع جميع الحيوانات المنوية الذي غدى الوجدان المطلق . وبين القاع والقمة ، لا توجد محطة وقوف ولا توجد محطة وسط . إن النهر ينبع من مكان ما على الجبال

وتتدفق مياهه نحو البحر . وفوق هذا النهر يسير قارب يقودنا إلى الله ،
وهو قارب تحت أمرنا ، لا يهاب الرياح . فالحياة إذن رحلة ، والتيار جارف ،
ولا بد للإنسان من أن يوجه دفعة القارب بنفسه لأن الحياة مملوءة بالطين
والوحل ، وإن كانت سهل علينا من وسط هذا الطين صخرة السعادة أو
الذات العادية .

ومنذ بلغ هنري ميللر العاشرة من عمره ، وفي نفسه يتولد شعور
جارف نحو الجنس .. الجنس الذي بدى له في طور المراهقة أمراً غامضاً
غير معروف . ولأنه رجل أمريكي ، ولأنه ابن المدينة ، فهو مرتبط بالبيئة
الأمريكية ، وهو يقدم لنا الجنس والحب على أنهما شيئين مناقضين
لبعضهما بشيء من الغرابة . فالجنس قد يصبح غامضاً أحياناً ، وقد يصبح
عادياً أحياناً أخرى .

وكانت لميللر علاقة حب مخيفة وهو في طور المراهقة ، ولكنه مع
ذلك لم يفقد شيئاً من اهتمامه الكبير بالأعضاء الجنسية وبوظائف الجنس . ولقد
انقسم النقاد إلى شقين حول هذه المسألة . منهم من يفسر الجنس عند ميللر على أنه
وصف مبالغ فيه . ومنهم من يرى أن اهتمامه بالجنس ضرب من ضروب
المراهقة . والواقع أن وصف ميللر للجنس أمر عادي وطبيعي جداً
بالنسبة للذكر الأمريكي . ويؤكد ميللر بنفسه أن حياته الجنسية حياة
عادية للغاية . وتوضح لنا رواية « مدار الجدى » ، « الجنس » مدى
اهتمامه بالجنس الغامض عندما كان طفلاً ، ثم استخدامه للأدوات
الجنسية عندما وصل سن البلوغ .

وتصور روايات ميللر : «مدار السرطان» ، «مدار الجدي» وثلاثية «على خشبة الصليب الأحمر» حياة ميللر وتطورها إلى أن أصبح فناناً وأديباً ، متخذاً الجنس موضوعاً أساسياً لهذه الروايات خلال مراحل تطوره . ولكن موضوع الجنس يختلف في جوهره وهدفه من مرحلة إلى أخرى . فهو في السنوات الأولى لا يختلف في هدفه عن الهدف العام ، حيث كان ميللر يهدف إلى إيجاد مصالحة أو مزاجية بين الواقعية والمثالية مع تجنب التجريد ، وأن يحكم قبضة يده على تحسين وتطوير خبراته في الحياة .

وكان الجنس في أمريكا في ذلك الحين قد أصبح مجرد نظرية شائعة ، وكانت الروح التجارية قد غزت محيط الجنس مثلما غزت كل المجالات الأخرى . وكان ميللر يقف مشتتاً بين اتجاهين رئيسيين في أمريكا : اتجاه التقليد الأوروبي الذي كان بازال قائماً وموجوداً في مجتمعات الهجرة ، واتجاه التقليد البيوريتاني أو الديني الذي كان هو الآخر مازال سائداً في أمريكا . وتصور لنا الشخصيات في روايات «مدار الجدي» ، و «مدار السرطان» ، وثلاثية «على خشبة الصليب الأحمر» علامة تدهور الجنس السليم في أمريكا ، بهدف اكتشاف الفرق بين الأنثى والذكر . ولذا ، تنقسم هذه المرحلة من كتاباته بالشكل المرتب للجنس . وفي كتابه «دنيا الجنس» *The World of Sex* يؤكد ميللر أهمية الرؤيا للأعضاء الجنسية لأنها هي التي توصلنا إلى حل المغز الخفي الكامن داخل هذه الأعضاء .

وأحد شخصيات رواية «مدار السرطان» ويدعى فان نوردن، قضى طول حياته يبحث ويكتشف الأعضاء الجنسية والتناسلية ، ويقول ميللر عن طريق هذه الشخصية أن الجنس ليست له قواعد تجريدية؛ وإنما الحرية ، والحرية وحدها هي أساس كل شيء . ويقيم ميللر مقارنة بينه وبين فان نوردن . كلاهما يحسان بعدم المسؤولية ، وكلاهما يبحثان عن المتعة ، وكلاهما يبحثان عن المرأة بنهم وشغف . غير أن ميللر لا يجري وراء المرأة وإنما ينتظرها حتى تصادفه ، وهو ذو دوافع جنسية قوية ، ولكن هذه الدوافع لا تستحوذ عليه ، ومن الممكن تعبئة قواه الجنسية والعاطفية ورغبته في الحب في التو واللحظة . وعندما تشغله عملية جنسية فإنه يركز لها كل قواه ، حتى إذا ما فرغ منها وأصبح خالياً ، يجد نفسه ظليقاً لاداء أعمال أخرى . فهو إما مشغولاً بالطعام ، وإما مشغولاً بالتنزه أو التريض ، وإما مشغولاً بالعمل . أما فان نوردن فإنه لا يحسن بالحرية أبداً وإنما يطارده الجنس باستمرار في كل مكان وفي كل لحظة كما لو أن هذا الجنس قد أصبح روجه الثانية ، وهو مع ذلك عديم العاطفة من الأساس . ويحكى ميللر واقعيتين عن فان نوردن : الأولى حينما يصوره أثناء محاولته مضاجعة فتاة . ولكنه يعجز عن مضاجعتها ، والثانية عندما يلتقي به ميللر في باريس بعد غيبة طويلة ، وفي هذا اللقاء يصور ميللر شخصية فان نوردن بطريقة تهكمية ساخرة . فهو رجل

شاذ ، غريب الأطوار ، أصابه مغص حاد في معدته من كثرة ممارسة الجنس .

أما النشاط الجنسي مثلما نلمسه في كتابات ميلر ، فإنه يحدث قبل وبعد زواجه الأول بعدة سنوات . ويصف ميلر هذا النشاط من هذه المرحلة بطريقة واضحة في رواية « الجنس » حيث تظهر موهبته وقدرته الجنسية كاملة . ويعتقد كثير من النقاد أن ميلر في هذه الروايات (مدار السرطان — مدار الجدى — الثلاثية) ليس مثير ومقلق ومتعب فحسب ، وإنما هو فظيع ووحش وشنيع . ويخرج علينا ميلر كما لو أنه بطل ، وبطل جنسى مغوار ، بل ربما أكثر من بطل . فهو الإله بريابوس إله القوة الجنسية عند الاغريق . إنه إله رجل أو رجل إله ، تبدو عليه علامات الذكورة القوية وإن كان عن غير قصد وبدون كبت .. فهو جر طليق ، له علاقات جنسية شائعة سواء كان بمفرده أو في جماعات .

ويذكر ميلر أنه عاد ذات ليلة متأخراً مع مونا (مارا) ، وأنه عندما كان يوصلها حتى باب بيتها ، أخذها في صنع الحب ، ولقد استندا على جذع شجرة ، ولكن قطعة فرعة قفزت فوقهما من أعلى الشجرة فأفسدت عليهما اللذة ، فسارا قليلاً إلى مكان خال ثم عادا إلى نفس الشجرة ، وبدأ في صنع الحب من جديد ، ومع عدم الإحساس بالراحة ، فإنهما يفرشان الأرض

وتبدو دقة ميلر واضحة في هذه الحادثة ، فهو يصف المكان

كما لو كان في غرفة نوم بابها موصد بإحكام . ولكنه مع ذلك يتركنا نسترق السمع ، وتتلصص عليه من فتحة الباب الضيقة لنرى المنظر بأكمله ، وتزداد حدة عينانا إتساعاً من الدهشة . . ومن الناحية السيكولوجية ، فإن النقاد يرون في هذه الواقعة تعبيراً صادقاً عما يجيش في صدر الكاتب من ميول عدوانية أثناء ممارسة الجنس . وهذا الأسلوب يتضح لنا في صفحات كثيرة من رواية « مدار الجدى » و « الثلاثية » . وهو مع مونا يتخذ أسلوب العنف البدائي تطبيقاً لما يؤمن به نحوها ، وهو مع عموم النساء يتخذ أسلوب الجنس الساذج ، ويتوقف الجنس على أن يكون مصدراً للذة ، بقدر ما يصبح مصدراً للآلم المبرح .

ويعصور ميلر حياته منذ البلوغ حتى سن الخامسة والعشرون على أنها فترة النشاط الجنسي . وقد تدهش حينما تعلم أنه لم يكن يستحي أن يمارس الجنس بطريقة فاجرة . فهو تارة يمارسه مع الزوجات ، وتارة مع الحموات ، وتارة مع الصديقات . وليس هناك مكان محدد ، ولا زمان أيضاً . فالمكان والزمان لا يهمان . . قد يكون ذلك في أحد مكاتب الشركة الغربية لاتحاد البرقيات ، وقد يكون في التاكسي ، وقد يكون في مخدع الزوجية مع امرأة أخرى غير زوجته التي تنام إلى جواره ، وقد يكون بمفرده أو مع جماعة ، وقد يكون مع امرأة نائمة في

حجرة الاستراحة . فالعلاقات الجنسية هنا علاقات غير ثابتة وإنما هي علاقات عرضية تأتي بالصدفة .

وهو مثلاً يحكى لنا أنه استقل تاكسى مع زوجته مونا ذات مساء . وكان التاكسى يزرع طرقاً باريس على غير هدى . وهنا تقرر مارا (مونا) أن تصنع الحب مع زوجها ميللر ، الذى لا يتردد هو الآخر فى ذلك . ويظل التاكسى يسير حتى مطلع الفجر ونشوة الحب تسكرهما . وينظر ميللر فجأة من نافذة السيارة ، فى نظرة دهشة مرتسمة على وجهه شرطى ، فينبه مونا إلى ذلك التى ترفض أن تصغى إليه

ولا يسع القارىء إلا أن يقف طويلاً متأملاً تلك اللوحات الفنية التى يصورها ميللر بكل واقعية . فهى ليست لوحات جنسية مجردة وإنما هى لوحات قائمة على تجربة حقيقية ، تفوق الواقع فى تصويرها . الجنس هنا عملية سامية رفيعة ، يطفى عليها الفنان من فرشاته رموزاً قوية ، ويحدد لها أبعادها وقدراتها وأججها ، دون أن يخالجه أدنى شعور بالنديم بعيد كل لوجة .

ويقول النقاد أن ميللر عندما كتب روايته « الجنس » لابد أنه كانت تختمر فى ذهنه فكرة معينة وإلا لما سماها بهذا الاسم . على أنه فى هذا الكتاب يذكر لنا ميللر شيئاً عن عبثه إفتاة فى فترة المراهقة تدعى « أوتافيتوود » وعلاقته بفتاة أخرى تدعى « مريان بينتر »

وهي تشبه إلى حد كبير زوجته. ياتريس. أحب ميللر هاتين الفتاتين عن بعد، وعندما لم يستطع الزواج، أو تكوين أسرة في ذلك الوقت، بدى له أن فكرة المعيشة في مجتمع ضرب من ضروب الخيال . وفي ظل حب المراهقة الضعيف ، استيقظت الغريزة الجنسية ، ولم تخمد إلا بعد أن انتهى الشوط كله . ولا يعالج ميللر الحرية الجنسية على أنها شيء مدمر أو شرير ، فالجنس والحب عنده شيئان متناقضان ، ولكن يجب أن يتحدا ويكونان قوة واحدة .

والحب هو أسمى درجات الحياة . إنه مثل حب الله لمخلوقاته دون تمييز بين اللون أو الجنس أو العنصر أو المكان أو الزمان. وميللر رجل يحب الطعام ، ويحب الخمر ويحب النساء . أما الزواج من امرأة واحدة ، أو من رجل واحد مدى الحياة ، أو هذا الشيء الذي نسميه الفضيلة ، فكل هذه أشياء لم تجنى منها إلا البؤس والحرب والعبودية والضعف . أما الخضوع للشهوة والإستسلام لها فذلك يؤدي إلى السلام والسعادة .

والجنس في كتب ميللر وجبة طعام شهية . وهو يربط بين الميلاد والجوع، وبين الجنس والشهوة كأمري طبيعى . ففي عالم الأحلام والفاثتريا تتحول هذه الأشياء إلى بعضها البعض ، وهو يقول أن العالم بدى له كما لو كان رحماً صناعياً أو سجيناً ، وكما لو أن كل واحد، وكل شيء قد

تأمر ضده لإدخاله الرحم من جديد بعد أن كانت قد انفصل
عنه لتوه .

وميللر رجل جائع . . جائع . . جائع .

وهو يقول :

« إنى دائماً جوعان . إنى أحس بجوع شديد . أنا لا أشبع أبداً .
الجوع فوق كل شيء . فوق الطعام ، وفوق الجنس وفوق
الروح . أنا لا آكل . أنا أربط نفسي كالأمييا بكل كسرة
خبز أجدها . إذا أكلت كسرة خبز ، انشطرت منى وثلاث ،
وتكاثرت إلى حيوات تطفو باحثة عن كسرة خبز جديدة . واستمر
الحالة كما لو أنى قد أصبت بدوار البحر . والنساء أيضاً قد أصبحن
في نظرى مثل كسرة الخبز . بعد أن أصل نفسي بهن أفترسهن
وأنا أخوض طريقى خلال الجسد والطفل والروح ، ثم انشطر مرة
أخرى » .

هذا الجوع ، وهذه الشهوة ، وهذه الشهية ، وهذا التهم الشديد
على الحياة، هي كل ما يربط بين ميللر وبين العاطفة ، فنحن لا نفتقد شيئاً
في هذا العالم قدر افتقادنا للعاطفة . في هذا العالم لا توجد إلا الأفكار ،
وهي أفكار عقيمة لا تساعد على الحياة .



المراة فى أدب ميلر.

يقدم لنا ميلر الشخصيات النسائية فى

كتبه فى طرق شتى .

وخلال الفترة الأولى من شبابه ، يقدم لنا النساء المعروفات بعدوانيتهم للمجتمع والجنس . فالمرأة هنا هى التى ينبذها الناس ، وهى التى لا يقبلها المجتمع تحت سمائه . . وعلاقات ميلر الجنسية فى هذه المرحلة علاقات غير ثابتة . يلتقى بامرأة هنا وهناك ، وهى غالباً امرأة مساوية له فى رغبتها الجنسية ولكنها فى نفس الوقت تنتظر منه أن يرواغها وأن يطاردها وأن يستحشها ، حتى إذا ما أثرت لفظت عن جنسها بطريقة جهنمية .

وليس معنى هذا أن الجنس عملية تعرية الثوب عن الذات البشرية.. وليس معنى هذا أيضاً أننا لأنحس بأي متعة فنية فى كتابات ميلر ، بل على العكس ، إننا نحس بالمتعة الفنية ، ونبتغس أيضاً فى الإحساس باللذة بهذا الجنس . وحتى إذا كان ميلر يدعى بأنه لم يكتب عن حياته الشخصية . ، فإنه يعترف فى صراحة أن كتبه هى المعادل الرمضى لحياته الذاتية ، وليست مجرد سرد أحداث هذه الحياة .

واللغة التى يستخدمها ميلر فى كتاباته لغة تنهك فى وضوح كل

القيم والتقاليد الأمريكية ، فهو عند رسم شخصياته النسائية ،
لا يستخدم كلمات وصفية مثل الكلمات التي كان يستخدمها
د. هـ. لورانس . لقد كان يبحث عن أثر يختلف عن الأثر الذي
كان يهدف إليه لورانس في رواية «عشيق الليدى تشارلى» مثلاً،
وإنما هو يستخدم مجموعة من الكلمات والألفاظ المتراسة بجانب بعضها
البعض التي قد تقلق القارئ الحساس إلى حد ما .

ولو أننا أتينا بكل أطباء التشريح وطلبنا منهم أن يقوموا بتشريح
رحم المرأة ، لما استطاع واحد منهم أن يفعل مثلاً فعل ميلر ، بل إننا
لا نبالغ إذا قلنا أن ميلر قد فاقهم جميعاً .

وقد لا تكون هذه النقطة في صالح ميلر الفنان ، لما هناك من فرق
كبير بين الفن والعلم ، ولكننا أمام تشريحات ميلر الفنان فإنه لا يسعنا
إلا أن نقف مكتوفي الأيدي ، مبهورى الأعين ، لما تبعثه هذه التشريحات
في داخلنا من مشاعر رقيقة حساسة نحو المرأة والجنس ، ونحو التجربة
الحية ، حتى أننا نكاد نسجد خاشعين أمام قدسية الجنس ورهيبته .
إن ميلر يضع نفسه داخل الزخم ، ويعيش فيه ، ويصفه لنا بأدق
تفاصيله وأجزائه . ، ويشرح لنا ألوانه ، ويفسّر لنا تركيباته ، ويتخذ
أسلوب المقارنة ، ومعطياً لنا إحاسيسه تجاهه ، وهو بهذه الطريقة يجعل
المرأة تقف ناسكة في محراب الرجل ، تطلبه وتسعى إليه في كل
أوقات الحياة .

وفي إحدى صفحات رواية « الشبكة » *Nexus* يصور لنا ميلر حياته وحيداً في باريس. لم تكن زوجته معه فتنتابه رغبة جامحة نحو الجنس . وهنا بفكر في جسد زوجته مونا المتغير الديناميكي ، وظل يتسكع على هذه الحالة حتى التقط لنفسه فتاة من إحدى صالات الرقص ، وعندما أعجب بها ، سأل نفسه : لماذا لا يتزوج من فتاة سهلة كهذه الفتاة ؟ ثم يحدثنا قائلاً :

« في اللحظة التي بدأت أقارن فيها بين جسدها وجسد مونا ، اتضح لي أن ذلك أمراً مفروغ منه . فهما كانت مزايها من ناحية اللحم والدم ، فهي في النهاية لحم ودم ، وليس فيها الشيء الكثير الذي لا تستطيع أن تراه أو تلمسه ، أو تسمعه أو تشمه . أما مع مونا ، فإن الأمر يختلف تماماً . إن أى جزء من جسدها كفيل بأن يشعل النار في جسدى . والغريب أن جسدها لم يكن جسداً متكاملًا ، ولكنه كان جسداً موسيقياً مثيراً . إن جسدها يصدو برغباتها ، وهي ليست بحاجة إلى أن تستعرض هذا الجسد أو تتمختر وهي تسير . ما عليها إلا أن تنكبته . أن تكون هي . إني مشتاق إلى ما يفوق الوصف ويسلب اللب والخيال : إني مشتاق إلى الجسد النهم والمحير في نفس الوقت . جسد مثل جسد مونا هو

جسد كلما امتلكه الإنسان أحس بأنه عبد له . إنه جسد
يمكن أن يأتي معه بكل آلام وأوجاع مصر ، بل وأعاجيبها
وعظمتها أيضاً .

والشخصيات النسائية في روايات ميلر والتي يتخذها محوراً
لكتاباتهِ وتصورِ تطور حياتهِ ، هي بلا شك شخصيات زوجاته . وقد
سبق أن ذكرنا أن ميلر تزوج أربع مرات ، وأنه طلق أربع مرات
أيضاً . تزوج بياتريس سيلفاس وكنز عام ١٩١٧ وهي التي تحمل اسم
مودى في رواية مدار الجدوى ، ثم تزوج للمرة الثانية من جين آرت سميث
عام ١٩٢٤ وهي التي يصورها ميلر في ثلاثية « على خشبة الصليب الأحمر »
باسم مونا ، ثم تزوج للمرة الثالثة من جانيتا م . لبسكا عام ١٩٤٤ ، وقد كان
زواجاً قصيراً يصوره لنا ميلر في رواية « بج سير » ، ثم تزوج للمرة
الرابعة من ايف ماك كلير عام ١٩٥٢ وطلقها أيضاً .

أما شخصية مودى ، ففيها تتنافر الذات مع الجنس . إذا سلحت نفسها
لرغباتها الجنسية فقدت ذاتها ، وهي الذات الوحيدة التي تعرفها . وحتى
تؤكد ذاتها اليقظة كان عليها أن تنكر كل الحقوق التي لجسدها .
كانت ترى أن الاستسلام لشهوات الجسد هو الذل والمهوان ، ويقول
ميلر عنها :

« لقد كانت تتوقع مني حباً لم أكن أستطيع أن أمنحها إياه

كانت تتوقع منى أن أدللها وأن أربت عليها كالطفلة الصغيرة
وأن أهمس في أذنيها بكلمات فارغة ، وأن ألاطفها ، وأن
أهددها ، وأن أمزح معها . تريد منى أن أعاقها وأن
أحتضنها بذراعى بطريقة مضحكة . إنها ترفض أن تعترف بأننى
ذكر وأنها أنثى . إنها تبغى أن أحدثها عن الحب ، وأن ألمس
يديها فى خفة وصمت . أما أنا فقد كنت صريحاً لا أعرف اللف
أو الدوران ، وكنت أصل إلى هدفى مباشرة ، وكنت متوحشاً
فى حى لها . . -

أكثر من ذلك أن ميللر كان مضطراً لى ما يصل بها إلى قمة الإثارة
الجنسية أن يتدرج بها على السلم ، حتى يصبح الجنس عندها مرضياً
عفوياً تلقائياً ، وكان عليه أن يتفحص الكدمات التى بساقها ، وأن
يقوم وجود عيوب وتشوهات بجسدها حتى يراها عارية ، وأن
يحاول إثارتها بتجاذب أطراف الحديث فى شتى الموضوعات ، حتى
يصل الجنس عندها فى النهاية إلى درجة الفوران دون أن تعترف به ،
فإذا ما بدأت ، فإنها تفقد السيطرة على نفسها تماماً وتتغير شخصيتها
وتبحث عن أى شىء وعن كل شىء .

وفى رواية « الجنس » ، يصور لنا ميللر محاولته الهروب منها أثناء
العملية الجنسية :

« مودى . . إذا كان المؤلف هو الله وليس زوجها ، رأت
نفسها تقف عارية في أرض خضراء ممسكة بمظلة فوق
رأسها لونها أحمر براق ، وتحت قدميها مجموعة من الحمام
الجميل الرمادي اللون ، والحمام ينقر على العشب . ولو أنها
حولت بصرها أثناء منحها البركة للحمام الإلهي الصغير ،
والتفت وراءها لرات امرأة فاجر لا تستحي تعطى مؤخرتها
لرجل عار مثل البقرة أو البغلة في الحقل . إنها لا تحب
أن تفكر في هذه المرأة خاصة في مثل هذا الوضع القبيح . إنها
تحاول أن تبقى الحشيش الأخضر فوق جسدها وأن تظل المظلة
مفتوحة فوق رأسها . إن الشمس ساطعة براق ، وهي تشع
الدفء في أجزاءها الخلفية الباردة . وكللاك القاسي تفتح ساقها
على بعد ، فيصفق الحمام بجناحيه بينهما ، وتلمس أجنحته
لمسات خفيفة حنونة ذلك القوس الرخاوي ويصفق بأجنحته
في جنون » .

وعموماً فإن شخصية مودى شخصية متناقضة تمام التناقض مع
شخصية مونا .

وميلر هو الزوج الذي يواجه موقفاً غريباً ، موقف الزوج الذي
يرتاب في صديقة زوجته . ففي رواية « الشبكة » بضعنا ميلر في الصورة
التي يواجه فيها « ستاسيا » صديقة زوجته التي أتت لتقيم معها في الشقة ،

وتنتابه الشكوك حول العلاقة القائمة بين «ستاسيا» وبين زوجته. ولكننا ندرك أن هذه العلاقة لم تكن علاقة شاذة بين امرأتين ، إنما هي علاقة كذب وخداع . كانت مونا تكذب على زوجها حتى تكون في نظره الزوجة أو المرأة التي يحلم بها الرجل ، وكانت تخفي عنه مشاعرها وأفكارها وأحاسيسها . ولكن ميلر كان ينظر إليها كأنما ينظر إلى لغزين . ولذا ، فإنه عندما يرى صديقة زوجته ستاسيا يواجهها بصراحة بشعوره نحوها ، ويبوح لها بشكوكه نحو علاقتها بزوجته :

« ماذا تحبني أنت تصديقين : أن مونا تحبني كثيراً لدرجة اضطرارها إلى الكذب على طول الليل والنهار ؟ أم أنها تحبك كثيراً لدرجة أنها لا تملك الشجاعة على البوح لك بهذا الحب ؟ أم أنك تحبينها كثيراً لدرجة أنك لا تستطيعين أن تريها حزينه ؟ اسمعي . . لو أنك سألتيني إن كنت أغار منك ، ولشد ما أكره أن أعترف لك بذلك ، فإنني أقول لك : نعم . إنني لست خجلاً لأن أعترف لك بذلك ، ولكن التفكير في أن شخصية مثلك قادرة على أن تثير غيرتي أمر يجعلني أحس بالخزي . أنا لا أحب متعاطي المورفين . وإنه لمن سوء الحظ . . . دعيني أقول لك ذلك بصراحة . . . إن زوجتي تحس نحوك بانجذاب شديد . . . وهذا عار عليه لعنة السماء والأرض . . . إنها للأسف لم تجد رجلاً غيري تحبه ، حتى ولو كانت قد

خاتنى مع رجل لا أحبه . . ولكن أن تكونى أنت . . ؟
لماذا هذه القذارة ؟ إنى أحس بالإنسحاق تماماً . . . »

ويهدى ميللر كتابه « مدار السرطان » إلى تانيا . لقد غاص لتوه
« فى بطن الحوت » ، ولا بد أن يخرج الفن الآن .

وتانيا هى إحدى الشخصيات النسائية فى رواية « مدار السرطان »
التي يعبر بواسطتها عن شهوته للجنس وللنساء ، وهى شهية نهمة كما
قلنا . ثم تتحول شهوته من تانيا إلى شهوة الطعام ، فلن تخلو وجبة من
قهوة بدون لبن ، أو قهوة بدون سكر ، أو خبز بدون زبدة ، أو لحم
بدون صلصة ، أو لا هذا ولا ذلك .

ثلاث قصص من روائع

عزى القارىء . . .

لقد اخترت أن أقدم لك بين صفحات هذا الكتاب ثلاث قصص أو بمعنى أدق ثلاث قطع مختارة من روائع الكاتب العظيم . والآن آن لك أن تسترخى على مقعدك ، وأن تأخذ أنفاساً قليلة ، فلا بد أنك قد سرت معى بسرعة وأنا أقدم لك فى الصفحات السابقة لمحة عن حياته، وفكرة بسيطة عن أدبه وفنه. وربما تكون أنت من الساخطين، أو ربما تكون من الراضين . سيان . إنه أدب ، ولا بد أن يصل إليك مهما كان العناء ومهما اختلف الذوق .

وقبل أن أبدأ معك الحديث عن المقتطفات الثلاث، أحب أن أؤكد لك ، ولك وحدك ، فأنت المستفيد الأول والأخير من قراءة آداب العالم ، أننى أضم صوتى إلى صوت أديبنا الكبير الأستاذ توفيق الحكيم لما نشره بجريدة الأهرام فى عدد الجمعة الصادر ٦ / ٨ / ١٩٧١ حيث يحدثنا عن مشاهدته لفيلمين فرنسيين عن الجنس :

« إن سمة الحضارة فى كل عصر هى البحث عن الحقيقة ، وخاصة فيما يتعلق بالإنسان ويتصل بأسباب وجوده المادى

والروحي . فكانت في حضارة مصر القديمة والهند ترسم وتنحت في المعابد بعض الأعضاء التناسلية رمزاً للحياة . كانوا يعرفون إذاً هم أيضاً أن « لا حياة في الدين » بل إن الشعر العربي القديم وكتب الأدب لمثل الجاحظ وابن عبد ربه كانت تتحدث عن الجنس كما نتحدث عن الطعام . وكانت أكثر الكتب الأدبية لا تكاد تخلو من باب للإطعمة وباب للباه . وما كان حد وقتئذ يرى في ذلك بأساً أو حرجاً . ولكن يظهر أنه عندما تأخذ الحضارات في الإنحطاط تكثر المحظورات ، وتسدل البراقع على كثير من الموضوعات ، إلى أن تمتد إلى روح المعرفة نفسها وعادة البحث فتصيبها بالشلل . وبهذا يقتل العلم وتنحسر الحضارة . . ليس معنى هذا هو فتح الباب فجأة للجنس الصريح أمام جماهير لم تهياً بعد لتقبله بمعنى مرتفع . فإن فتح النافذة فجأة أمام صدر مريض طال نومه قد يصيبه بصدمة أو علة . . ولكن المطلوب هو الإعداد الطويل المدى لدخول الهواء الطلق وذلك بتعويد الناس شيئاً فشيئاً على احترام البحث الحر ، وإفساح الصدر لمناقشة الحقائق الحيوية ، وعدم التهييج والتعصب وإقبال النافذة بعنف أمام من يريد إدخال نسمة صغيرة . . » .

ونحن نود أن نؤكد لأديبنا الكبير أننا لا نبغى أكثر من ذلك .

إننا لا نريد إلا أن يفتحوا لنا النوافذ . . . إننا لا نريد تعصباً ،
ولا نريد تعنتاً من أحد . . . إننا نحلم باليوم الذى يعود فيه إلينا جاحظ
جديد يكتب لنا عن الجنس فى صراحة . . . إننا نعمل على بناء الدولة
المصرية ، ولن تقوم الدولة المصرية إلا إذا تركنا الباب مفتوحاً للبحث
عن الحقيقة وكل ما يتعلق بالإنسان ويتصل بأسباب وجوده . . . فهذه
كلها من سمات الحضارة فى كل عصر ، ومصر القديمة كانت تعرف
أهمية الجنس قبلنا بآلاف السنين حتى أنهم كانوا ينقشونه على معابدهم
وكانوا يقدمون له القرابين . ولا بد لليل أن ينجلي ، ولا بد للنور أن يعم
على مصر الجديدة ، وأن تتحطم كل الرواسب الموجودة فينا .

إننا نتطلع فى شغف إلى من يكتب لنا رواية جنسية من صميم واقع
الشعب المصرى . . . رواية تحلل نفسية ذلك الفرد المصرى الذى يعانى من
الكبت والحرمان ما لا يعانى منه أى فرد آخر فى مجاهل أفريقيا .

ولكن . . . ويجب أن يعلم كل أدبائنا وكتابنا الكبار وعلى
رأسهم نقادنا جميعاً . . . إن ذلك لن يتحقق ما لم يسهموا هم فيه . نعم . .
أنتم يا شيوخ كتابنا ومعشر مفكرينا . . . ساعدونا على أن تفتح الباب
فى صدر المريض ، وساعدونا على أن نجد له هواء الغرفة ، فبكم ،
وبكم وحدكم يستطيع المريض أن يعافى من دائه .

ولنعود إلى الحديث عن قصصنا الثلاثة . . .

القصة الأولى بعنوان ما كس ، وهى شخصية ضائعة فى المجتمع بهذا

الاسم ، شخصية ضائعة بمعنى الكلمة ، وأؤكد لك أنك بعد أن تقرأ هذه القصة ستعود إلى قراءتها مرات ومرات ، لا للاستشعار بلذتها ، فهي لذيذة وممتعة ، ولكن لكي ما تعيش في جو البؤس والفقر الذي يعيش فيه ما كس ، وأنا واثق أنه بعد قراءتك لهذه القصة ستقسم أنك تعرف ما كس وأنتك قابلته في الحارة أو في ميدان الأوبرا ، أو في ميدان قصر النيل . وثق أنك أيضاً ستجبه وستعطف عليه ، وقد يقابلك في الطريق ألف مصري ممن تستطيع أن تطلق عليهم اسم « ما كس » . لقد بلغ البؤس والفقر به لدرجة أنه إذا أراد أن يفرغ شحنته الجنسية بحث عن رجل يضاجعه لأن ذلك قد لا يكلفه عشرة فرنكات يدفعها إلى بنى . ولقد اخترت لك هذه القصة من كتابه « ما كس والبلاعم البيض »

أما القصة الثانية وهي بعنوان « بيكود ريبيبي » فهي تناقش مشكلة أذلية : لمن يكون البقاء ؟ هل البقاء للأصلح كما قال دارون ؟ وإذا صح ذلك فمن هو الأصلح ؟ هل هو الإنسان الذي يملك قوى الشر والعدوان ؟ أم هو الإنسان الآلى الذى لا يعرف الموت أو الإقراض أو الدمار ويظل حياً إلى ما شاء الله ؟ .. وهذه القصة اخترتها لك من رواية « الشبكة » .

وفي القصة الثالثة نعيش لحظات إنسانية مع بنى اسمها « برتا » والكاتب يعاملها معاملة إنسانية تقرب إلى المثالية . من منا يعتق امرأة وقد بلغت به الثورة مداها وهي بين يديه والطريق الخالى يقدم لها خير فراش لخير لذة ممكنة ؟

كلمة أخيرة .

أرجو أن تستمتع بهذا اللون الجديد ، وأرجو أن نلتقى مرة أخرى
مع مجموعة جديدة من روايات الكاتب العظيم .

مع تحياتي ؟

ميشيل مسمر

القاهرة نوفمبر ١٩٧١

ماکس

عرفت ما كس في مستهل أيامي الأولى حينما كنت أقيم في فيلا
سيرانت بباريس بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٥ تقريباً ، أو بين عامي ١٩٣٦
و ١٩٣٧ على وجه الدقة . وربما أكون قد صورته في قسوة مستخدماً
الأسلوب الرمزي أحياناً في التعبير عنه ، لكنني في النهاية صورته كما
عرفته في الواقع دون أدنى تغيير .

ولقد بعث إلى كثير من القراء يسألونني عما حدث لما كس فيما بعد ،
والواقع أنه ليست لدى أدنى فكرة عن هذا الموضوع وغاية ما يمكن
أن أفترضه هو أن الأمان لا بد قد قتلوه عند غزوهم لفرنسا .

وأرجو أن لا يتبادر إلى الأذهان أن ما كس هو الشخصية الوحيدة
التي تعرفت عليها إبان سني تشردى . ولا يسع المرء إلا أن يعود
بذاكرته إلى الوراء ، إلى الأربع سنوات أو الأربع سنوات ونصف التي
قضيتها في خدمة شركة البرقيات ، وأتذكر العديد من الشخصيات
المنبوذة ، وهم بالآلاف ، إذ كنت محظوظاً بمعرفتهم .

وأقول « محظوظاً » لأن الفضل يرجع إليهم في أنني تعلمت
الكثير عن أسرار الحياة ، وعن معرفة الله ، وعن بطلان
« فعل الخير » .

* * *

هناك فئة من الناس تجعلك تناديها بأسمائها الأولى بكل سهولة . .
وما كس واحد من هؤلاء .

وهناك فئة من الناس تجذبك وتشدك إليها من أول وهلة ، لا بدافع
من الحب ، وإنما بدافع من البغض والكراهية الشديدة حتى أنك تجد
نفسك في النهاية مشدوداً إليهم بفعل غريزة حب الاستطلاع .

وبعد ان تتعرف عليهم ، تضطر إلى الرجوع إليهم مرات ومرات
لتقوم بدراساتهم ، ومن ثم يتولد في نفسك إحساس بالعطف والشفقة
نحوهم، وهو إحساس زائف غير موجود أصلاً في الواقع ، وحتى إذا قدمت
إليهم خدماتك، فإنك لا تفعل ذلك بدافع من العطف وإنما لأن آلامهم
قد استعصت عليك ولم يعد في إمكانك فهمها .

وما زلت أذكر ذلك المساء الذي استوقفتني فيه ما كس بالبوليفار ،
ووجهه مكسواً بشعور من الامتعاض يتمثل في كل حركة يقوم بها .

كنت ساعتها أسرع الخطى في طريقى إلى أحد دور السينما عندما
وجدت شيئاً يسد الطريق فجأة أمامي ، وكان هذا الشيء هو وجه ذلك
اليهودى ما كس . وأعتقد أنه استوقفتني ساعتها ليطلب منى عود ثقاب
أو شيئاً من هذا القبيل ، ولكن مهما كانت الأسباب فأنا واثق تماماً
أنها كانت مجرد حجة واهية .

وإنصح لى على الفور أنه سيقوم بسرد قصة طويلة مؤلمة لم أكن في
الحقيقة على استعداد لسماعها ، ولذا فقد حاولت أن أسلك معه مسلكاً

جافاً ، وأن أكون فظاً غليظ القلب إلى حد الإهانة إذا لزم الأمر ،
ولكنه للأسف لم يتزحزح ، وبدى لي أنه قد تسمر في الأرض ، وأنه
قد علق بوجهي كالصفعة الساخنة .

وحتى أضيع عليه الفرصة ، لم أتوقف لسماع القصة ، بل قمت من نفسي
بتغيير مسار طريقي ، وكنت اهدف من وراء ذلك إلى إحساسه بالقرف
والابتعاد عني ، ولكنه مع ذلك لم يحرك ساكناً ، وظل عالقاً بوجهي
كالصفعة الساخنة ، يرفض أن أهينه أو حتى أن أوبخه .

ومنذ تلك اللحظة فصاعداً ، ظل ما كس ينبغي كظلي حيثما
ذهبت وحيثما جئت ، وكنت أظن في المرات القليلة الأولى التي كنت
اصطدم فيها بوجهه في الطريق أن ذلك إنما يحدث بمحض الصدفة ،
ولكن بمرور الأيام بدأت أشك في الأمر ، وكنت إذا خرجت في المساء
أسأل نفسي تلقائياً : إلى أين أنت ذاهب يا ميلر ، وهل تعتقد أنك
لن تلتقي بما كس ؟

وحتى أتجاشى اللقاء به ، كنت إذا خرجت للتريض ذات مساء
أصطحب معي أحد جيراني الذين لا يعرفهم ما كس ، وكنت أختار
واحداً مما لا يحلم ما كس بالتعرف عليهم في يوم من الأيام وذلك إمعاناً
في تجنبه .

وكنت أعرف الأماكن التي لا يحيد بها كس عن إرتيادها ..
فهو إما في البوليفار ، وإما في مونتبارناس ، وإما في مونتبارتر .. وهي

الأمّا كن التي تشد السواح إليها .

وعندما يخيم الظلام على المدينة، يختفي ما كس من ذا كرتي تماماً، حتى إذا كنت عائداً في طريق المعتاد إلى البيت وقد نسيت ما كس بالفعل ، أجد عيناى يلتقيان بعينيّه فجأة ، وبلا سابق إنذار .

وعلى بعد خطوات قليلة من مبنى الفندق الذي أقيم فيه ، ينطلق ما كس من مخبأه بغتة ويأخذ في هز رأسه لى ، وأجد نفسى عاجزاً عن تفسير إمكانية وصوله إلى هذا المكان بهذه السرعة .

ويطالعنى ما كس بنفس ملامح الوجه التي تعودت أن ألقاه بها . وكان يخالجنى شعور ذلك الوقت أن هذه الملامح ما هى إلا قناع رسمه ما كس بنفسه خصيصاً لى ، وأنه مزجه بالحزن والألم والبؤس ، وجعله يضئ في وجهى كالشمعة التي بات فتيلها داخل روحه ، فكان ضوءها كضوء الفتيل المغمور في زيت مقدس سرقه ما كس من مجمع اليهود .

والأهم من ذلك، أننى كنت أعرف الكلمات التي سينطق بها وكنت أضحك وهو ينطق بهذه الكلمات ، وكان ما كس يأخذ ضحكى هذا على محمل من المودة والصداقة .

وكان دائماً يلقانى مهللاً بقوله :

— كيف حالك ياميللر ؟

كان يقول ذلك كما لو أننا لم نلتق منذ زمن غير قريب . ويتسم لى

ابتسامة عريضة سرعان ما تتحول إلى ضحكة مدوية وكأنه قد ألقى
بحفنة من البارود فوق فتيل الشمعة .

وبعد أن يتوقف عن الضحك تخرج من بين شفثيه عبارة أخرى
ألفت سماعها :

— هل تعرف ياميلر ما الذى حدث لى منذ أن التقينا آخر مرة ؟
والغريب أنى كنت متأكدا أن شيئا لم يحدث له على الإطلاق ،
وكانت تجاربي معه تؤكد لى أننا عموما قليل سنجلس فى مكان ما لنستمع
بلذة الإدعاء .

إذا مدد ما كس ساقيه ، لأعتبر ذلك حدثا فى حد ذاته ، وإذا مال
الطقس إلى البرودة أو إلى الدفء ، لكان ذلك أيضا حدثا فى حد ذاته ،
أما إذا أتى ما كس بعمل ما ، فإن ذلك معناه أن حدثا خطيرا قد وقع !
إن كل ما يحدث لما كس يحمل فى طياته سوء الطالع ، ولا يمكن
أن يكون غير ذلك .

وإن كان لما كس أمل ما فى الحياة ، فهو أن تسير الأمور إلى
أسوأ مما هى عليه ، وكانت الأمور للأسف تسير من سيء إلى أسوأ بالفعل .
وهكذا تعودت أن أعرف ما كس ، وتعودت على حظه السيء
الذى لازمه طول العمر ، وبدأت أعتبره كأحد الظواهر الطبيعية فى
هذا الكون .

لقد أصبح ما كس جزءا من المنظر العام الذى تألفه العين . .

هو الأحجار ، وهو الأشجار ، وهو المراحيض ، وهو بيوتات
الدعارة ، وهو أسواق اللحوم ، وأغصان الورد ، ومثل هذا القبيل .
وهناك آلاف من البشر ممن يجوبون الطرقات والحوارى طوال
الليل والنهار مثل ماكس ، ولكن ماكس هو الصورة الحية
لكل هؤلاء ...

إن ماكس هو البطالة ، وهو الجوع ، وهو البؤس ، وهو الألم
وهو اليأس ، وهو الهزيمة والذل .

قد يستطيع المرء أن يتخلص من الآلاف الآخرين بفلس
أو بفلسين ، ولكن من المستحيل أن يتخلص المرء من ماكس بأى
طريقة كانت .

وأصبحت علاقتى شديدة الصلة بماكس ، حتى أننى لم أعد أقوى
على التخلص منه ، ولقد أصبح أقرب إلى نفسى عن قرب حشرة من
البق فى الفراش إلى جسدى ، وأصبحت - أحس به تحت جلدى وكأنه
شئ يسرى فى دى .

وعندما يتكلم ماكس أستمع إليه بأذن نصف صاغية ، ويكفينى
أن ألتقط أول عبارة تخرج من بين شفتيه حتى يسهل على بعد ذلك
أن استرسل فى الحديث معه إلى ما لا نهاية .

ولم يكن ماكس يقول الا الصدق ، وكان صدقه مخيفاً .
وكنت أظن أحياناً أن أفضل طريقه يمكن الإعلان بها عن

هذا الصديق هو أن أصحب ما كس إلى أحد الطرق الجانبية ، وأن أطرحه على ظهره هناك لينفت عن كل ما بداخل نفسه من صدق مخيف . ولو كنت قد فعلت ذلك لما كان قد حدث شيء بالطبع ، فالناس لهم طرقهم الخاصة في تجميل المنعطفات ، وفي سد آذانهم عن سماع ما لا يرغبون في سماعه ، وهم في بساطة لا يرغبون في سماع هذا الصدق ، لأنهم في الواقع يعجزون عن سماعه .

إن الناس ، كل الناس ، يتحدثون مع أنفسهم بنفس الطريقة ، ولعل الفارق الوحيد بين ما كس وبين كل الناس هو أن ما كس يعبر عن هذا الصدق علانية وبذلك يحوله إلى صدق موضوعي ، وكأنه الأداة التي تكشف عن الحقيقة العارية .

ولقد أصبح ما كس في غاية من البؤس ، بل أصبح البؤس نفسه ، وكأن البؤس قد تقمصه ولم يعد في الوجود شخص اسمه ما كس ، وهذا هو السبب في أن من يقف ليستمع إلى ما كس يحس برهبة شديدة .

ولذا ، فمن الأفضل أن نعتبر ما كس رمزاً على أن نعتبره حقيقة شيء ما .

وهو في نظري رمز للعالم .

إنه رمز لحالة هذا العالم ، وهي حالة غير قابلة للتغير .

إن ما كس لن يتغير ، ولن يفلح شيء في تغييره مهما كانت قوته .

ولا شك أنني كنت غيبا إذ فكرت في أن أصحب ما كس
إلى أحد الطرق الجانبية ، وأن أطرحه على ظهره لينفتح عما بداخل
نفسه من صدق مخيف . لقد كان الأمر أشبه بما لو أنني كنت
كنت أسأل الناس : هل ترون ؟ نرى أى شيء ؟ نرى العالم ؟
العالم !

إنهم يرون العالم بكل تأكيد ، وهو الشيء الوحيد الذي يهربون
منه باستمرار ويتجنبون رؤيته بشتي الطرق .

وفي كل مرة إلتقيت فيها بما كس ، كنت أحس أنني أحمل
العالم فوق راحة يدي وأنه يقف أمام عيناى .

وكنت كلما جلست استمع إليه ، كنت أود لو أن أقول له :

— هل تعلم يا ما كس أن أفضل شيء تقوم به هو أن تحطم
عقلك ؟ نعم يا ما كس .. حطم نفسك فهذا هو الحل الوحيد ، وإن كان
لن يؤدي بك إلى التخلص من العالم كله بسهولة . إن ما كس حقيقة
مطلقة . وحتى يتخلص من العالم ، عليه أن يقتل كل رجل ، وكل
إمرأة ، وكل طفل ، وأن يحطم كل شجرة ، وكل حجر وكل بيت
أيضا . نعم يا ما كس . . اقتل كل نبات ، وكل كوكب سيار .
أنت ميسروب يسرى في دم كل إنسان .

وأرجو أن يكون مفهوم ما أنني حينما أتحدث من ما كس أتحدث عنه
طول الوقت كشيء وقع في الماضي ، فأنا أتحدث عن الرجل الذي كنت

أعرفه منذ سنة أو أكثر ، قبل أن يسافر إلى فيينا ، والذي كنت
أصطدم به في الطريق كل يوم ، والذي تركته ممدداً على الأرض .
رسالة وحيدة وصلتني منه وهو في فيينا يرجوني فيها أن أشتري
له الأدوية .

كتب إلى يقول أنه مريض وأمه سيطردونه من الفندق الذي
يقم فيه .

وما زلت أذكر تلك الرسالة حينما كنت أقرأها وأضحك على
إنجليزيتها المكسرة .

ولم أشك لحظة في أن ما كس لم يذكر لي إلا الحقيقة في رسالته ،
ولكنني للأسف كنت قد عقدت العزم على عدم التدخل في الموضوع ،
وبت أتضرع إلى يسوع أن يزهد روح ذلك البني آدم حتى يكف عن
مضايقتي وأستريح من همه .

وعندما مر أسبوع ولم أتلقي منه أية رسائل أخرى ، غمرني شعور
بالارتياح ، و تمنيت لو يكون ما كس قد أدرك أنه لا جدوى من
ورائي أبداً .

أما إذا كان ما كس قد مات ، فإن الأمر سوى عندي ، لأنني في
الواقع أريد أن أعيش لوحدي .

وعندما خيل إلى أنني قد تخلصت من ما كس تماماً ، بدأت تراودني
فكرة الكتابة عنه . وكنت أحياناً أحس بحاجتي إلى رؤيته لأكد

من بعض الإنطباعات التي كنت أنوى استخدامها في الكتابة عنه ،
وفكرت في أن أبعث إليه بنفقات السفر ليأتي وأراه، ولن أستطيع الآن
أن أعبر عن مدى أسفى وحزنى لإهمالى هذه الرسالة التي رجاني فيها
أن أشتري له الأدوية ، لأننى أدركت أنه عن طريقها كان باستطاعتي
أن أبعث ما كس حياً بكل سهولة .

والغريب ، أننى وأنا أستعيد ذكراه الآن ، أحس أن كل ما قاله لى
محفوراً فى عقلى بشدة ، ولكننى للأسف لم أكن على استعداد إطلاقاً
ذلك الوقت للكتابة عنه .

ثم اضطررتى الظروف التغييب عن باريس عدة شهور .
ولم يعد يعد ما كس يخطر على بالى إلا نادراً . . . واعتبرت الأمر
وكأنه قصة عاطفية جميلة وقعت لى منذ زمن بعيد .
لم أسأل نفسى إن كان ما كس ما زال على قيد الحياة .
أبدأ . .

لم أفكر فى ما كس اللحم والدم ، ولم أفكر فى ما كس الذى
يتألم ويعانى .

لم أفكر فى ما كس من هذه الناحية . . وإنما كنت أفكر فى
ما كس الرمز . . ما كس الذى لا ينقرض أو يموت .
وبعد فترة قصيرة من عودتى إلى باريس . خرجت ذات مساء أبحث
عن شخص ما .

ولكن . . من تظن أنى قد قابلت ؟ .

لقد قابلت ما كس بلا شك ، ومن سيكون غيره ؟

ويا له من رجل ؟ ! .

— ميللر . . كيف حالك ؟ أين كنت ؟

هذا هو ما كس بعينه !

لعل الشيء الوحيد الذى تغير فيه الآن هو أنه لم يكن حليقاً .
ما كس يبعث من الموت حياً فى حلة أنيقة من الطراز الإنجليزى ،
وفوق رأسه قبعة سمكة من القطيفة وطرفها منثنى إلى أعلى بطريقة
مقرزة ، ويبدو شكله كاللانيكان . يستقبلنى بنفس الابتسامة ، وإن
كانت ابتسامة شاحبة جداً هذه المرة ، وتستغرق وقتاً طويلاً حتى
ترسم على شفتيه ، وتحس أنها ابتسامة باهتة كشعاع نجم بعيد يرسل
على اللون بآخر وميض له قبل أن يخبو إلى الأبد ! .

وذقته التى نبت فيها الشعر حديثاً . .

الذقن هذه المرة هى الشيء الوحيد الذى يقوى فيه مظاهر البؤس
عن ذى قبل ، وهى التى تقلل من نظرة الامتعاض التى كانت تغلو شفتيه
وتطفى على وجهه هالة قدرة من التقديس .

وبت تحس أن الامتعاض قد ذاب فى المتاعب وأن المتاعب قد
ذابت بدورها فى الآلام المبرحة .

والغريب حقاً ، أننى لم أعد أحس بنفس الإحساس الذى كنت



ماكس يبعث من الموت حيا في حلة أنيقه من الطراز الإنجليزي ،
وفوق رأسه قبعة سميكه من القطيفة وطرفها منثنى إلى أعلى بطريقة
مقرزة ، ويبدو شكله كالماينكان .

أحس به نحوه من قبل ، فلقد أصبح في بساطة بشع الشكل ، وتجسمت فيه كل أنواع المعاناة ، حتى غدى كاريكاتيراً للمعاناة .
ولا شك أن ما كس يعي ذلك بدليل أنه لم يعد يتكلم بنفس الحماس أو الحيوية وإنما أصبح يشك في كل كلمة يقولها ، وغدى الأمر روتينياً محضاً بالنسبة له .

ولعله الآن ينتظر مني أن أضحك مثلاً كنت أضحك في الماضي ، والمدهش أن ما كس هو الذي يضحك الآن وكأن ما كس الذي يتحدث عنه شخص آخر لا يمت إليه بصلة .

والحلة التي يرتديها . .

حلة إنجليزية أنيقة ، واسعة على جسده بحوالي ميل ، أخذها من رجل انجليزي في قيتنا ، وهو يحس بأن هذه الحلة قد جعلته مسخرة أمام الناس ، وأنها حطت من كرامته ، ولم يعد أحديصدقه وهو يرتديها.
وحذاؤه . . .

حذاؤه قدر ، ممزق ، مصنوع من قماش الخيام ولا يتمشى مع القبة القطيفة .

وهو يتأمل قدميه داخل الحذاء القدر ، ويكاد يوهمني أنه يحس براحة كبيرة وهو منتعلاً هذا الحذاء ، ولكن تغلب عليه عاداته ، فيقول لي أن حذاءه الآخر موجود طرف الاسكافي وأنه فقط لا يملك المال لإحضاره .

وعلى أى حال ، فالحلة الإنجليزية هى التى تسيطر على فكره الآن
لأنه يعتبرها أقوى رمز على سوء حظه الجديد .
وبينما يمد إلى كم ذراعه لأتفرج على قماش الحلة ، يبدأ يقص على
ما حدث له فى الفترة الماضية وكيف أنه حاول السفر إلى فيينا .
وفى فيينا أراد أن يبدأ حياته من جديد .
واكتشف للأسف أن الحياة فى فيينا ليست بأفضل مما هى عليه
فى باريس .

المطاعم التى تقدم الحساء والخبز فى فيينا أنظف بكثير من مطاعم
باريس . . هذه حقيقة يعترف بها ما كس فى صراحة مملوءة
بالامتعاض ، فما فائدة أن تكون المطاعم نظيفة وليس فى جيبه فلس
واحد . . ؟ .

ولكن الشيء المؤكد هو أن فيينا بلدة جميلة جداً ، ونظيفة جداً ،
وقد خيل إليه كثيراً أنه لا يجب أن يطاء بقدميه على أرضها .
ولكن . . أعوذ بالله ! .

كل فرد فى فيينا أصبح الآن يمد يده .
إن فيينا مدينة جميلة . . رائعة . . نظيفة . إن جمالها ونظافتها من
الأشياء المثيرة لدرجة الاستفزاز .

وهممت بأن أقطع ما كس لأسأله إن كانت القصة ستطول ، فلقد
كان أصدقائى ينتظروننى على الجانب الآخر من الطريق ، وكنت

مضطراً إلى أن أذهب للبحث عن الشخص الذى أريده ، فلم يسعنى إلا أن أقول منمغماً وأنا أتفحص الجزء الآخر من الطريق بعطف عيني :

— نعم . . نعم . . فيينا .

وإذ به يصيح بى قائلاً :

— لا . . ليست فيينا . .

— ليست فيينا !

— نعم . ليست فيينا ، وإنما بازل . بازل يا ميلر ، بازل وليست فيينا . لقد تركت فيينا منذ شهر تقريباً .

وأسأله :

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— ماذا حدث ؟ ألم أقل لك يا ميلر أنهم أخذوا كل الأوراق ؟ ألم أقل لك أنهم جعلونى من السواح الذين لا يحق لهم العمل فى أى مكان ؟ ألم أقل لك ؟ ألم أقل لك ؟ .

وكنت عند سماع ذلك أتفجر بالضحك ، وكان ما كس يضحك على طريقته الخاصة . . تلك الطريقة التى تتفجع بالألم والجزن ، ثم يستطرد قائلاً :

— هل تتصور ذلك يا ميلر ؟

ويطلق ضحكة أخرى كريهة ، ويقول :

— ماذا كان فى وسعنى أن أفعل ؟ لقد اضطرت أن أقبل هذا

الوضع ، وإن كان الأمر لم ينته عند ذلك .
في مدينة بازل شدوه من داخل القطار . رفض البوليس أن
يسمح له بعبور الحدود ، وفي هذا يقول ما كس :
-- سألتهم يا ميلر لماذا يمنعوني . . قلت لهم : ماذا حدث ؟
خبروني من فضلكم . . ألم أتبع الأصول والقواعد السليمة ؟
آه . . لقد فات على أن أذكر أن ما كس ظل طول حياته يتبع
القواعد والأصول السليمة ويحارب من أجلها .
ورغم ذلك فقد شدوه من داخل القطار، وألقوا به وحيداً في الطريق،
فكيف كان يمكنه أن يتصرف ؟ .
هام على وجهه في الطرقات . ظل يبحث عن وجه صديق ، وأى
صديق . . صديق أمريكي أو حتى إنجليزي .
ووقع بصره على لافتة كتب عليها : « دار إيواء اليهود » .
وهب حاملاً حقيته الصغيرة ، ودخل .
طلب لنفسه فنجاناً من القهوة ، وأخذ يقص عليهم قصته التي
تتفجر بالآلم .
وقالوا له :
— لا تهتم . . إن الأمر بسيط للغاية .
وقاطعت ما كس محاولاً إنهاء الحديث معه بقولي :
— على أي حال ، ها أنت قد عدت إلى باريس مرة ثانية .

فصاح قائلاً :

— وأى تقع فى ذلك ؟ إننى أعود إلى باريس وقد أصبحت واحداً من السواح الذين يتدفقون عليها ليل نهار. هل تظن أننى سأتمكن من العمل ؟ إننى أريد أن آكل يا ميللر ، والمصيبة أننى لن أستطيع أن أشجذ ملياً واحداً الآن وأنا مرثدياً هذه الحلة الأنيقة .
وإذ درد ريقه وهو يقول فى مرارة :

— لقد انتهيت يا ميللر . . انتهيت وما كان يجب إطلاقاً أن أبدو بهذه الأناقة .

وتطلعت إليه من قمة رأسه إلى إخمص قدميه .

كانت أناقته فى الواقع فى غاية من التنافر .

كان كالمريض الذى شفى لتوه من المرض ، والذى امتلاً قلبه بالسعادة لمغادرته الفراش ، ومع ذلك لم تكن له القدرة على خلق شعر ذقنه .

وكانت القبعة التى تعتلى رأسه من نوع غال ، وتزن حوالى طن ، وتبعث على الضحك والسخرية ، تزينها بعض الخيوط ، ويبدو فيها وكأنه من أهل المدن القديمة . . أما جذور الشعر التى نبتت فى ذقنه مؤخراً فلو أنها كانت قد طالت قليلاً ، لكان ما كس قد أصبح أحد الأشباح الذين يطوفون بأجياء اليهود فى براغ ويود أبست ، وتسيطر عليهم الكآبة والحزن ويبدو عليهم مظهر النبلاء . لو طال الشعر قليلاً ، لبدى ما كس كالقديسين تماماً ، وإن كانت

القبعة طرفها منثنى إلى أعلى بطريقة مقرزة للغاية .

والشاهد أشبه باحتفال اليهود بعيد البوريم .. النبيذ المعتقد أطاح برؤوس
القديسين .. وجوه اليهود تعلوها مسحة من الكآبة والحزن .. ذقونهم شعرها
منمق وناعم .. فوق الرؤوس تعلى قبعات يهودية صناعة إنجليزية . الشموع
تحترق .. الحاخام يرسم .. الترائيل المقدسة الحزينة تخرج من بين شفاه
الجموع الواقعة .. المكان كله مفروشاً بالقبعات . قبعات .. قبعات ..
قبعات . كلها قبعات منثنية من الطرف إلى أعلى . قبعات تثير في
النفس الإشمئزاز على الأحزان والآلام !!

وقلت لما كس :

— على أى حال لقد عدت إلى باريس وقضى الأمر .

ومددت له يدي لأصافحه ، وأخذت أهنئ يدي بيده ، وانتظرت
أن يترك يدي ، ولكنه ظل ممسكاً بها ، ليحكى لى من جديد ، وليعود لى
مرة ثانية إلى بازل ، وإلى « دار ايواء اليهود » حيث كانوا يقولون له هناك
أنه يوسعه أن بهرب إذا شاء .. صحيح أن هناك حراس على الحدود ،
ولكنهم لن يروا شيئاً ، وهذا ما حدث بالفعل .

وخطى ما كس خطوتين إلى الأمام وأردف يقول :

-- وهكذا يا ميلر استطعت أن أعود إلى باريس مرة ثانية ..

أعود إلى باريس بلد القمل والقاذورات والفتنة . الناس في فيينا يقدسون
النظافة على الأقل ، وكنت ترى البروفيسير بجانب الطالب في صف واحد

في انتظار الحصول على الطعام . أما هنا في باريس ، فإنك لا تجد إلا
التسولين ، ويالهم من متسولين تفوح منهم التتانة ، وتبدو القذارة واضحة
عليهم ، ويتساقط من أجسادهم القمل ، ولا تحصل منهم إلا على
حشرات البق الخبيثة .

وعدت مرة أخرى أهن يدي بيده وأقول :

— نعم . . نعم . . هذه هي الحقيقة بعينها يا ما كس .

ودون أن يترك يدي ، يستطرد ما كس قائلاً :

— إني أكاد أجن يا ميلر . تصور أنني لم أعد أستطيع النوم ،
وتجدني في السادسة وقد استيقظت تماماً ، وأظل راقداً في الفراش أفكر
فيما عسى أن أقوم به . ولكنني لا أقوى على البقاء في الغرفة حتى يعم
الضوء ، فأنهض من فراشي وأغادر المكان إلى الشارع مهما كان الأمر ،
ومهما كنت جوعاناً . يجب أن أرى الناس يا ميلر ، ويجب أن أسير في
الشوارع فلم أعد أطيق الحياة بمفردي .

وبعد قليل يستطرد :

— بحق السماء يا ميلر . . هلا قلت لي ما الذي يحدث لي بالضبط ؟
لقد أردت أن أبعث إليك ببطاقة من فيينا حتى أظهر لك أن ما كس
ما زال يذكرك ، ولكنني للأسف كنت قد نسيت العنوان . أعتقد أنك
كنت في نيويورك يا ميلر . . هيه . . كيف كان الحال هناك يا ميلر ؟
أقصد كيف كان الحال في نيويورك ؟ هل تعتقد أن نيويورك أفضل

من باريس ؟ أعتقد ذلك ؟ لا ؟ أهي الأزمة أيضاً ؟ إن الأزمة في كل مكان يا ميلر .. في نيويورك ، وفي باريس ، وفي كل مكان . لن تستطيع الهرب يا ميلر ، ولن يسلمونك العمل ، ولن يجعلونك تعيش — فإذا في وسعك أن تفعل إذن بهؤلاء الأوغاد .. ؟ إن الخوف يسيطر على ... ولكنني قاطعته قائلاً :

— اسمع يا ماكس .. يؤسفني أنني لن أستطيع البقاء معك طويلاً ، ولكنني أريد أن أقول لك شيئاً . لا تقلق على شيء يا ماكس ، فأنت لم تقتل نفسك بعد ، أو حتى لم تفكر في هذا الموضوع بعد .. ويتسم ماكس وهو يقول :

— يا لك من رجل طيب القلب ! إنك إنسان سعيد ، وستظل سعيداً طول العمر . أتمنى يا ميلر أن أكون برفقتك طول حياتي ، وأن أذهب معك إلى أي مكان في الدنيا . صدقني يا ميلر .. أنا على استعداد تام لأن أصحبك إلى أي مكان في الدنيا .

* * *

جری هذا الحديث بيني وبين ماكس منذ ثلاثة ليالى تقريباً .. ظهر أمس .. توجهت إلى أحد المقاهي الصغيرة الواقعة على قارعة الطريق ، وجلست بالشرفة أقرأ مخطوطاً لكتاب جديد لي ، ولقد اخترت هذا المكان بالذات لأنني كنت أود أن أفرغ كلية لقراءة المخطوط ، ولأنني لم أكن أريد أن يزعجني أحد أثناء قراءته .

وعند ما كنت قد قرأت نصف المخطوط ، وأخذت رشفة أو رشفتين
من مشروب فاتح للشهية سمعت صوتاً مألوفاً لدى يصيح بي قائلاً :
- من ؟ ميللر ؟ كيف حالك يا ميللر ؟
وكالعادة كان ماكس ينحنى فوق رأسي .

نفس الإبتسامة الغريبة . . نفس القبعة . . نفس الحلة الأنيقة . . نفس
الحذاء القذر المزق المصنوع من قماش الخيام ، ولكنه كان حليق الذقن
هذه المرة ، ولعل هذا هو الشيء الوحيد الذي تغير فيه .

دعوته للجلوس معي . طلبت له ساندوتشا وشوب بيعة . أخذ
يفرجني على بنطلون خلته الأنيق . لاحظت أنه استخدم حبلًا لفة حول
وسطه ليشد به البنطلون إلى أعلى .

وأخذ ماكس ينقل بصره في ازدراء بين بنطلونه وبين حذاءه
القذر ، وبدأ يقص علي ما حدث له طيلة الفترة الماضية .

ليلة أمس لم يكن لديه شيء يأكله .. لم يجد حتى كسرة خبز جافة ،
ولكن الحظ ، والخط وحده ، هو الذي أنقذه من هذه المحنة ، فقد
اندس وسط مجموعة من السواح ، ودعوه لتناول الشراب معهم .

وقال ماكس :

- اضطرت إلى أكون مهذبا معهم ياميللر . لم أستطع أن أقول لهم
من البداية أنني جائع بالطبع ولكنني ظلمت أتمحين الفرصة لذلك ، أو أن
يقوموا لتناول الطعام ، ولكنني اكتشفت أن الأوغاد قد تناولوا طعامهم

قبل حضوري ، ولذا ظلمت طول الوقت لا أتناول شيئاً غير الشراب ،
وكانت معدتي خالية تماماً ، والغريب أنهم لم يطلبوا أى طعام أثناء الشراب
ولو حتى لمرة واحدة .

كنت ذلك الصباح في حالة نفسية جيدة مما دفعني إلى ملاحظة ما كس
ولعل ذلك راجع إلى المخطوط الذي كنت أنوى أن أفرغ من قراءته ،
ولقد كان مخطوطاً جيداً حتى أنني كنت أشك في أن أكون أنا الذي
كتبته .

وقلت لما كس :

— اسمع يا ما كس .. لدى حلة قديمة تصلح لك . هل أنت مستعد
لأن تذهب معي فوراً إلى البيت ؟

ويتهلل وجه ما كس بالبشر ، ويقول لي ساعتها أنه سيحتفظ بالحلة
الإنجليزية الأنيقة لأيام الآحاد ، ويسألني إن كانت توجد في البيت مكواة
حتى يقوم بكي حلتي ، وكي كل ما أملك من الثياب ، وأخبره بعدم وجود
مكواة ، ولكن ربما تكون هناك حلة أخرى تصلح له .

(لقد تذكرت الآن فقط أن أحد أصدقائي كان قد وعدني ذات يوم بأن
يعطيني حلة .)

وينتشي ما كس ..

إذن فستكون له ثلاثة حلل بدلاً من حلة واحدة . إنه يتصور أن
هذه الحلل ستكون من نسيج بديع ، وأنه سيقوم بكيها بنفسه ، وهو

يؤكد لي أن الإنسان يستطيع أن يحكم على أى شخص بأنه أمريكي من أول وهلة عن طريق الخطوط الطويلة التي تزين نسيج بنطلونه ، أو من مشيته ، وحبذا لو أن كان هذا الشخص يضع يديه في جيوبه . لقد عرفني من هذه الطريقة حينما التقيت به لأول مرة . الرجل الفرنسي مثلاً لا يضع يديه في جيوبه على الإطلاق .

ويسألني ما كس في سرعة :

— أمتاً كد أنت يا ميللر أنك ستحصل على حلة أخرى ؟

— لست متأكداً تماماً يا ما كس ، ولكن ربما ..

وبعد برهة قلت له :

— مارأيك في ساندوتش آخر يا ما كس ؟ خذ ساندوتشا ونصف

شوب بيرة ..

— يا لأفكارك يا ميللر ! إنك رائع على الرغم من أنك لا تعطيني

الكثير ، غير أن طريقة تفكيرك هي التي تهمني ، فهذه الطريقة تهبني الشجاعة .

الشجاعة !!

كلمة ينطق بها بالفرنسية ، فالكلمات الفرنسية تفت من بين شفتي ما كس من حين لآخر ، وهي كلمات متنافرة ومتناقضة كالقبعة القطيفة ، وهو حينما ينطق بكلمة « البؤس » مثلاً ، ينطق بها كما لا ينطق بها الفرنسيون أنفسهم . وعلى أى حال فلتكن إذن الشجاعة هذه المرة.

ويقسم ما كس أنه على استعداد تام لأن يذهب معى إلى أى مكان فى الدنيا ، وكله ثقة بأننا سنعود على خير مايرام . نعم .. انا وهو ..

(وأنا الذى أفكر طول الوقت فى التخلص منه !)

ولكن كل شىء اليوم أو - كى ..

أنا اليوم على استعداد لأن أفعل من أجلك كل ما تريد يا ما كس .
والوعد لا يعلم أن الحلة التى سأعطيها له اليوم واسعة جداً على ،
ولا تناسبنى ، وهو يظن أننى رجل كريم ، ولا بأس من ذلك لأننى
أريده اليوم أن يقدم لى القرايين ، ولعل السبب فى ذلك راجع إلى
المخطوط الذى كنت أقرأه منذ لحظات ، لأن ما كتبه كان شيئاً رائعاً
بالفعل حتى أننى كنت أطيّر هياماً بروحى .

وناديت على الجرسون :

— علبة سجار .. للسيد !

نعم .. علبة سجار للسيد ما كس ، فهو سيد هذه اللحظة على الأقل .
ويرمقنى ما كس بابتسامة واهنة ..

حسن .. تشجع يا ما كس .. سأخذ بيدك اليوم وأرفعك إلى الـ

ثم أهوى بك إلى ظلمات البحر .

يا يسوع .. من أجلك وحدك سأمضى يوماً مع هذا الوعد ، ثم أركله
بقسوة على مؤخرته .

اليوم سأستمع إليك يا مضاجع الذكور .. سأستمع إلى كل كلمة ،

وإلى كل همسة ، وسأصبر حتى المنتهى ، ثم لتذهب إلى الجحيم .

وأسأل ما كس :

— هل تحب أن أطلب لك نصف شوب آخر من البيرة يا ما كس ؟
خذ نصفاً آخرًا ، وخذ ساندوتشاً ، ولنواصل جلستنا معا .

— لكن .. ميلر .. هل ستدفع ثمن كل هذا ؟

يا للوغد !!

إنه يعلم تماماً أنني قادر على الدفع ، وإلا ففيا تشجيعي له على طلب
المزيد ؟ إنه يتبع معي أسلوبه الخاص ، وينسى أنني لست واحداً من فتيانه
الذين يملأون البوليفار ، أو واحداً من زبائنه العاديين ، ومن أدراني ،
لعله قد وضعني في القائمة !

ويبدأ الدمع ينسكب من عينيه ..

والحقيقة أنه ما أن يبدأ ما كس في البكاء حتى يبدأ الشك يتطرق

إلى قلبي ..

يا لها من دموع !!

دموع لامعة .. دموع تنبعث من مقلة العين وتنساب فوق خديه ..

دموع صغيرة كحبات اللؤلؤ .. كل دمة فص من اللؤلؤ ..

كم أتمنى يا يسوع أن أدخل مرة واحدة داخل ما كينة الدموع

وأرغب بعيني طريقة التصنيع !

ولكن اليوم يوم رائع جميل ..

من أمامنا تمر بائعات الهوى وكلهن أنوثة صارخة، ولا أدري إن كان
ما كس يحس بهن، فأسأله :

— ماذا تفعل يا ما كس ... ؟

— فيم ؟

— إذا أردت أن تضاجع ؟

— إذا أردت أن أفعل ماذا ؟

— لقد سمعتني يا ما كس. قلت لك إذا أردت أن تضاجع. ألا تعرف
ما هي المضاجعة ؟

ويقسم ما كس .. يتقسم تقس الابتسامة الواهنة الضعيفة ، وينظر
إلى بطرف عينيه وكأنه دهش لمثل هذا السؤال .

وكنت أريد أن أعرف إن كان ما كس ، بكل ما أوتي من آلام
ومتاعب ، يحمل في جنباته ميكروب أفكار الخطيئة . ولم لا ؟ هذه
الأفكار ، كما يقول ، تراوده من وقت لآخر . أليست هذه الأفكار من
سمات البشر ؟ ولكن ماذا في وسعه أن يفعل بعشرة فرنكات ؟ إن
الأمر حقاً يبعث على الامتناع ، وهو ليفضل أن ...

وأقاطعه قائلاً :

— نعم .. نعم يا ما كس . إني أعرف تماماً ما تريد أن تقول .

وما أن تغادر المقهى حتى أصحبه إلى الناشر ، وأطلب منه أن ينتظرني
قليلاً في الممر ريثما أعود إليه . وعندما أعود محملاً بعدد من الكتب تحت

إبطى ، يجرى نحوى ويلتقط منى الكتب ، والسعبادة تغمر قلبه
لإخساسه بأنه قد أدى بذلك عملاً حقيقياً .

ويهمس فى أذنى قائلاً :

— ميللر .. أعتقد أنك ستصبح مشهوراً يوماً ما . إن الأمر لا
لا يحتاج إلى تأليف كتاباً عظيماً حتى تحقق الشهرة . إن الحظ قد يجلب
للإنسان الشهرة دون تعب .

— تماماً .. تماماً يا ما كس . إنه الحظ ، ولا شئ غير الحظ .

وبدأنا نسير فى طريق الحرية تحت البواكى .

على مقربة منا ، كانت توجد مكتبة تعرض كتاباً إلى ، وهى مكتبة
ضيقة صغيرة ، وفتريتها مكدسة بالكتب المغلفة بورق السلوفان . فقررت
أن أصحب ما كس إلى المكتبة حتى يرى بعينه هذا الكتاب ، وحتى
ألس بفضي مدى تأثير ذلك عليه .

وعندما وصلنا إلى المكتبة ، أنحنينا ندقق النظر فى عناوين الكتب
المعرضة ..

هذا كتاب « حكمة بوذا الكامية » ، وهذا كتاب « تحت الرداء » ،
وهناك كتاب « حياتى فى الحب والهوى » ، ثم كتاب « هناك تحت .. »
ولكن أين كتابى ؟ .

لم أجد كتابى فى مكانه . لقد تعودت أن أراه أعلى الرف بجوار
كتب غريبة عن الجلد بالسياط . فتركت ماكس منهمكاً فى دراسة

رسومات العاطف ، فلم يكن يبدو عليه الإهتمام بكتابي ، وقلت له :
— إنتظر لحظة يا ما كس . . سأدخل ثم أعود إليك .

وفتحت باب المكتبة في عصبية ، وقابلتنى سيدة فرنسية جذابة ،
حيثنى بإيماءة من رأسها ، وبعد أن جلت ببصرى سريعاً على الأرفف ،
وألقيت نظرات خاطفة يائسة على الكتب ، سألتها :

— هل عندك كتاب « مدار السرطان » ؟ .

وأخبرتني السيدة أنه موجود ، وأشارت بيدها ناحيته ، فشعرت
بالإرتياح ، وأخذت أسألها إن كانت تباع منه نسخاً كثيرة ، وإن
كانت هى شخصياً قد قرأته ، فقالت لى أنها لا تقرأ الإنجليزية للأسف ،
فأخذت أتحرك هنا وهناك محاولاً أن ألتصم الزيد عن كتابى . وسألتها
عن السبب فى تغليف الكتب بورق السلوفان ، فأخذت تذكر لى
الأسباب وتعددتها ، ولكن ذلك لم يكفينى ، فقلت لها أن الكتاب
لا يجب عرضه داخل هذه المكتبات ، فهو ليس من النوع الذى يعرض
فيها بالطبع . وبدأت السيدة ترتاب فى أمرى ، وبدى لى أنها لم تعد
تصدق أننى مؤلف هذا الكتاب كما سبق وأن أفهمتها كذلك .
وإتضح لى أنه من الصعب أن يكون بينى وبينها أى نوع من التفاهم ،
فهى لا تبدو مهتمة بكتابى أو بأى كتاب آخر معروضاً بالمكتبة ،
ولعل ذلك راجعاً إلى طبيعة الفرنسيين أنفسهم ، ولا بد أننى قد كبرت
فى السن . كما تبين لى أننى لم أكن حليقاً ، وأن بنطلونى لم يكن

مكويًا ، وأنه لا يتمشى مع السترة التي كنت أرتديها ، ولذا فضلت أن أعود إلى ما كس ، وفي الوقت الذي استدرت فيه للخروج ، فتح باب المكتبة ، ودلف منه شاب إنجليزي أصفر الوجه ، تلوح منه مظاهر الفن ، وبدى لي ملبوخاً تماماً ، فتسللت خارج المكتبة بينما كان يهيم بإغلاق الباب . وقلت لما كس وأنا ألتقي به :

— اسمع يا ما كس . . هناك نسخ كثيرة من الكتاب بالداخل . . صف كامل مملوء بها ، كما أن الكتاب يباع بكميات كثيرة وفي منتهى السرعة كالخبز . لقد أكدت لي السيدة التي بالداخل أن كل واحد يطلب نسخة منه .

— أما قلت لك يا ميللر أنك ستكون مشهوراً ؟ .
والظاهر أن ما كس مقتنع تماماً بذلك ، وهو على العموم رجل سهل الإقناع ، وإن كانت هذه صفة لا أحبها فيه كثيراً .
ومع إحسامي بالرغبة في الحديث عن كتابي ولو كان ذلك مع ما كس بعينه ، إقترحت عليه أن نذهب لتناول القهوة في البار .
ويسرح ما كس بفكره في شيء ما ، وأحس أنني أكاد أجن .
إنني لا أريده أن يشغل فكره بأي موضوع آخر غير موضوع كتابي ، وليكن ذلك لهذه اللحظة على الأقل .

وأسمع ما كس يقول لي فجأة :

— هل تدري فيما كنت أفكر يا ميللر ؟ كنت أفكر في أن

تكتب كتاباً عن حياتي .

وشعرت أن ما كس يريد أن يشط مرة ثانية إلى الحديث عن متاعبه التي تصادفه في الحياة ، فأعمل على تغيير الموضوع في الحال :

— في إمكاني أن أوّلف كتاباً عنك ، ولكنني لا أريد . إنني أريد أن أكتب عن نفسي أنا . . هل تفهم ؟ .

بالطبع ما كس متفهم جداً لهذه الأمور . إنه يعلم أن الكاتب مثلي لديه الكثير مما يستطيع أن يكتب عنه ، ولعل هذا ما حدى به لأن يلتبني بالتلميذ . . أى تلميذ الحياة . . على أن أذهب هنا وهناك . . أن أضيع وقتي . . أن أظهار بأنني أستمع بالحياة ، بينما أنا في الواقع أقوم بدراستها ، وبدراسة الناس . لقد استوعب هذه الفكرة ، ويعلم أن مسألة الكتابة مسألة غير مضمونة لأنها تعنى العمل الدائب أربعة وعشرين ساعة في اليوم .

ويقلب ما كس الأمور حسب تفكيره ، ويقارن حياته بحياة الآخرين ، ويبحث عن الفرق بين بؤس إنسان وإنسان آخر ، ثم يعود إلى التفكير في متاعبه الشخصية ، وكيف أنه لم يعد يستطيع النوم ، وتلك الآلة بداخل دماغه لا تتوقف عن العمل أبداً .

ويقول لي :

— أعتقد يا ميلر أن الكاتب لا يسلم هو الآخر من أحلام

الكابوس .

أحلام الكابوس ! .

أمسكت على الفور بقلم وسجلت هذه العبارة على مظروف أمانى .
وسألنى ما كس :

— لماذا تدون ذلك يا ميللر ؟ هل تعتقد أن لما قلته قيمة ؟ .

— إنه رائع يا ما كس . . إن ما قلته يساوى كنزاً . . .

ويحددنى ما كس بنظرة بلهاء .

أحقاً أقول الصدق أم أسخر منه ؟

— إن الملاحظة التى قلتها يا ما كس تساوى ثروة كبيرة بالنسبة لى .

ويعود ما كس إلى تشغيل ذهنه من جديد .

كثيراً ما كان يعتقد أن الكاتب أو الأديب لا يعوزه إلا تجميع
الحقائق ، فأقول له :

— هذا غير صحيح يا ما كس ، وإن كان العكس صحيح . كلما
قلت الحقائق التى تتجمع لدى الكاتب ، كان ذلك أفضل ، وخير
الأمور أن يكتب الإنسان بلا حقائق مجمعة على الإطلاق . . هل
تفهم قصدى ؟ .

ولكن ما كس لا يفهم شيئاً من هذا الكلام ، وإن كان يبدى
استعداده للاقتناع به .

ويتمتم ما كس بكلمات مثل تعاويز السحر ، ويقول وكأنه يخاطب

نفسه . :

— هذا ما كنت أفكر فيه دائماً يا ميلر . . إن الكتابة يجب أن تنبع من القلب ، ويجب أن يكون لها تأثير على الإنسان .

إن عقل الإنسان بلا شك يقفز قفزات سريعة تشير العجب !

في أقل من دقيقة واحدة استطاع ما كس أن يميز فن الكتابة . جلست بالأمس مع بوريس ، وقضينا اليوم بأكمله تناقش هذه المسألة . . مسألة « الكلمة الحية » . . الكلمة التي تخرج مع عملية الشهيق والزفير . . عملية فتح الفم البسيطة ، حيث يكون قلب الإنسان مرتبطاً بالله . . هذه مسألة يدركها ما كس على طريقته الخاصة ، الحقائق في حد ذاتها لا تعني الكثير أو القليل . الإنسان هو المهم ، فالإنسان هو الذي يقف وراء الحقائق ، وهو الذي يرتبط بالله ، وهو الذي يتكلم كما يتكلم العلي القدير .

وتساءلت إن كان من الصواب أن يرى ما كس كتابي ، وأن يقرأ منه صفحات أمانى حتى أتبين إن كان سيتمكن من إستيعابه أم لا .

ثم بوريس . . ؟

فكرة رائعة أن أقدم ما كس إلى بوريس !

سيترك ما كس إنطباعاً معيناً على بوريس بلا شك ، وأنا أود لو أن ألس ذلك بنفسى ، ومن المؤكد أن وجود ما كس سيعمل على تغيير الجو ، وسينبض عنا غبار السأم الذى نعيش فيه ، ويكفيينا ذلك على

العشاء . وعندما اقتربنا من البيت ، أوضحت الأمر لما كس . إن بوريس صديق طيب ، وهو يحترف الكتابة مثلي .

وقلت مؤكداً لما كس :

— لا أستطيع أن أعدك بأن يفعل بوريس من أجلك شيئاً ، إن كل ما أطلبه منك هو أن تلتقي به .

ورحب ما كس ترحيباً كبيراً بالتعرف على موريس ، ولم لا ، وبوريس يهودى هو الآخر مثله مما يسهل الأمر ، ثم أن بي رغبة لأن أراها يتبادلان أسمى الكلمات العبرية المزوجة بالألمانية ، وما كس يذرف الدمع أمام بوريس ، وبوريس ينتحب أمام ما كس ، وقد يطلب بوريس من ما كس البقاء معه في حجرته الصغيرة بالطابق العلوى فترة من الزمن . وياله من مشهد مثير أن أرى الإثنين يقفان معا في حجرة واحدة وما كس يقوم بتأدية الأعمال لبوريس ، من طهى الطعام وكى الملابس ، فهو على استعداد لأن يؤدي أى شيء في سبيل لقمة العيش . وبمجهود كبير أحاول أن أخفي تخمسي للفكرة ، فأقول لما كس :

— يجب أن تعرف يا ما كس أن بوريس شخص غريب الأطوار . ولكن ما كس لا يهتم بذلك ، وفي اعتقادي أنه لا يجب الخوض في توضيح هذه المسائل العميقة الآن ، ولندعهما يجتمعان ببعض ويتفاهان بقدر الامكان .

ويدخل علينا بوريس من الباب في حلقه الأسموكنج الجميلة، شاحب الوجه، هزيل الجسد، نحيفا كما لو كان قد فاق لتوه من حلم عميق .

وما أن أنطق باسم ما كس أمام بوريس ، حتى يتهلل وجهه بالبشر . لقد سمع عن ما كس كثيراً ، وهو يحس الآن أنه مدين لى لاحتضاره إلى البيت للتعرف عليه .

وبوريس من الأشخاص الذين يتمتعون بشخصية جذابة توحى بالعطف . وعندما ندخل إلى الأستديو ، نجده راقداً فوق وسادة وقد شد على جسده النحيف بطانية سمراء .

المشهد الآن ليهوديان . . الإثنان واقفان وجها لوجه . كل واحد منهما ذاق طعم المعاناة وإن كان من غير المفيد أن نخوض في هذه الموضوعات الثانوية الآن . لندخل في لب الموضوع على الفور . . ها أنذا أرى نوعين من المعاناة ، نوعين متنافرين ومتناقضين تماما . . بوريس مضجعا بظهره على الفراش ، إنه أجمل رسول معاناة عرفته في حياتى إنه إنجيل بشرى مفتوح . على كل صفحة من صفحاته صورة للمعاناة ، وصورة للبؤس ، وصورة للتمزق ، وصورة للكرب واليأس ، وصورة للهزيمة واندحار الجنس البشرى .

وعلى الناحية الأخرى يجلس ما كس فوق حافة المقعد . صلحته بها غور شديد يمتد إلى أسفل الجبهة وكأن المعاناة ذاتها قد تحولت إلى بلطة حادة هوت فوق رأسه . إنه قوى . إنه فى مثل قوة الثور ، ولكنه أضعف

بقليل من بوريس ، فما كس لم يعانى إلا من الآلام البدنية كالجوع ، وحشرات البق ، والمراتب الخشبية ، والبطالة ، والذل .

وظل ما كس يقوم بعدة محاولات كي يستخلص لنفسه بعض الفرنكات من بوريس ، وهو جالس على حافة المقعد وقد توترت أعصابه بعض الشيء ، فنحن لم نمنحه الفرصة بعد لعرض قضيته من البداية إلى النهاية ، وهو يحاول بدوره أن يتصيد كلمة يدخل بها فى الموضوع ، وفى أثناء ذلك يرقد بوريس مسترخيا على فراش الأسف ويتوقع أن يحل ما كس محله لأنه يدرك أن ما كس قد أتى إلى البيت ليتألم نيابة عنه . وأترك ما كس يحكى قصته ، وأقوم لأفتش لنفسى عن كأس ، فقد قررت أن أستمتع بهذه الجلسة بقدر المستطاع . وفى مثل هذه المناسبات كان بوريس هو الذى يواجهنى بسؤاله :

— ماذا تحب أن تشرب ؟

ولكن نظرا لوجود ما كس بيننا ، فإن هذه الفكرة لم تخطر على باله .

وعلى الرغم من أننى أعتبر قصة ما كس من القصص الغالية ، شأنها فى ذلك شأن الأحجار النفيسة ، إلا أن سماعها مئات المرات جعلنى أفقد خراجتها ، وأصبحت أخشى أن ينفجر عقل بوريس بما يقوله ما كس من « حقائق » ، خاصة وأن بوريس لا يميل إلى سماع الروايات الطويلة وإنما يكتفى بعبارة صغيرة أو حتى بكلمة واحدة ، والخوف

أن يكون ما كس قد جعل قصته مملة ، فها هو يعود بنا إلى فيينا حيث مطاعم الحساء النظيفة ، وبهذه الطريقة ستطول القصة ما في ذلك شك ، إذ لا بد أن تنتقل من فيينا إلى بازل ، ومن بازل إلى باريس ، وفي باريس سنحس بالجوع والعوز ، وسنرى الشقاء والبؤس . وما من شك أيضاً ، أن ما كس سيقدم بروفة كاملة لهذا العرض ، وهذا لا يروق لى لأنى أريده أن يخوض في المعمة مرة واحدة ، وأن يغوص في الوحل الراكد ، وأن يندمج في الملل الكئيب ، وأن يقف في العراء ، وأن يذوق لدغات البق الخبيثة ، حيث الأبواب كلها موصدة ، وحيث طرق النجاة جميعها مغلقة ، وحيث لا أصدقاء ، ولا ملاذ ، ولا عمل ، ولا شيء على الإطلاق .

ولم يبدو على بوريس الإهتمام بمواصلة الاستماع لما كس . إنه يريد أن يسمع شيئاً درامياً . . شيئاً قدراً . شيئاً قدراً وجيلاً ومخيفاً ، وواقعياً أيضاً .

وأنا واثق أن ما كس سيخرج بوريس من ملابسه .
ولكن لا . .

تبينت أبنى مخطيء في ظننى . إن بوريس يطلب من ما كس أن يقص عليه القصة من بدايتها إلى نهايتها ، فعندما يكون مناج بوريس معتدلاً بيدي نوعاً غريباً من القدرة على الصبر والتحمل ، لأنه بذلك يستطيع أن يمنح نفسه الفرصة للتفكير في حل مشكلة ما ، ومن

ثم يشعر براحة نفسية عميقة .

وأرقب بورييس عن كسب .

هل يصغى بورييس إلى ما كس بالفعل ؟

نعم . . . إن بورييس يصغى إليه بحواسه الخمس ويتسم ابتسامة خفيفة من وقت لآخر .

ويفرق ما كس في برميل من العرق . إنه لا يكاد يتلمس تأثيره على بورييس ، وبورييس يستمع إليه كما لو جالسا في الأوبرا ، وما كس من هذه الناحية أفضل من الأوبرا بلا شك خاصة وأن بورييس مسترخ فوق حافة الوسادة ويشد على جسده البطانية .

ويخلع ما كس معطفه . .

عرق غزير يكسو وجهه وكل جسده لما يبذله من جهد مع بورييس ، وأنا جالس بدوريي بالقرب من حافة الوسادة ، أشيع بصري بين ما كس وبورييس .

ولما كان باب الحديقة مفتوحا ، فقد أظفت الشمس بهالة من النور حول رأس بورييس ، وكان على ما كس أن يعطى وجهه للحديقة . إذا كان يريد أن يوجه حديثه إلى بورييس ، وكانت أشعة الشمس الدافئة عصر ذلك اليوم تنساب داخل الاستوديو الرطب فتشيع فيه الدفء وتدخل الحرارة في حديث ما كس : وتبدو على بورييس نعمة الراحة وهو مسترخ على حافة الوسادة ، فلا أستطيع مقاومة الأغراء في الجلوس إلى

جواره ، فأتخذ لنفسى مكانا إلى جواره بالفعل ، وأنصت إلى قصة مألوفة عن الألم وأتلهذ بها .

وأترك ما كس يواصل حديثه مع بريس ، وأجول ببصرى فوق الرف بجوارى ، وأحس فى جلستى هذه وأنا منصت بكامل عقلى إلى القصة ، أننى أصبحت فى وضع أفضل من ذى قبل ، وأننى أستطيع أن أحكم على مدى تأثير القصة بطريقة أمثل ، ولا غرو إذا قلت أننى تبينت ثمة اختلاف فى القصة لم يسبق أن تبينته من قبل . فالكلمات وهى تخرج من بين شفتى ما كس ، وعناوين الكتب التى أتفحصها ، والهواء الدافئ الذى يشع فى الحجرة من باب الحديقة وطريقة ملابس ما كس فوق حافة المقعد . . كل هذه الأشياء تجمعت واتحدت مع بعضها البعض وجعلتنى أحس بأكبر لذة ممكنة .

والحجرة ، كماداتها ، كانت تسبح فى حالة من الفوضى وسوء التنظيم .

كانت تتكدس فوق المنضدة الواسعة تلال من الكتب والمخطوطات والملاحظات ، والملاحظات التى كان من المفروض أن أقوم بالرد عليها منذ شهر تقريبا ولم يحدث . . كانت الحجرة تعطى الإحساس بأن رجال الشرطة قد داهموا بغته وألقوا القبض على شخص ما بداخلها ، أو كأن الكاتب الذى يعيش فيها قد مات فجأة ، وبأمر خاص لم تمتد يدي إلى أى من محتوياتها ،

تري ، لو أنني قلت لما كس أن هذا الرجل الذي يسترخي أمامه
على حافة الوسادة والمدعو بوريس قد مات منذ زمن بعيد ، فماذا عساه
أن يقول ؟ إن بوريس يتفق معي تماماً حول مسألة الموت هذه ، ولعل
هذا هو سر قدرته على الاستماع إلى ما كس بطريقته المفضلة : طريقة
الأوبرا . والمطلوب من ما كس الآن ، أن يموت بدوره إذا كان يريد
أن يعيش هو الآخر .. أن يموت لهما ودما كما مات بوريس من قبل .

وتلمح عيناى ثلاثة كتب ، الواحد بنحوار الآخر ، وكأن ترتيبهم
جاء عن عمد وقصد . الكتاب المقدس ، وبنحواره كتاب بوريس ، ثم
كتاب نيتشه عن الرسائل المتبادلة بينه وبين براندر .

ومنذ عدة ليالى ، كان بوريس يقرأ لى أصحابنا من إنجيل لوقا ويتهمننا
بأننا لم نعد نقرأ كثيراً من إنجيل العهد الجديد . ثم آخر خطاب كتبه
نيتشه عن « المصلوب الأوحى » الذى ظل مدفوناً فى مقبرة الجسد ثلاث
سنوات كاملة ، ومن حوله العالم يشدو مترتما فى مدحه .

ويشدنا ما كس إلى قصته . يعود بنا إلى ما كس الكوجى ..
ما كس الذى كان يعيش فى البداية فى مكان ما بمدينة لبرج بالقرب من
الحصن الكبير ، ثم ترح ضمن من ترحوا .. بالآلاف ترحوا .. رجال لهم
وجوه عريضة ، وشفاه غليظة من أسفل ، وعيون غائرة فى الجبهة مثل
ثقبين فى بطانية بفعل حريق ، والأذن كبيرة وعريضة جداً ، والخياشيم
مفلطحة ، حساسة ، مأساوية . آلاف من اليهود احتشدوا عند مدخل

لبرج ، يكسو وجوههم حزن عميق ، وتغور رؤوسهم بشدة بين أكتافهم ، ويسيطر عليهم أسف شديد .

والغالب أن بوريس يفحدر من جنس آخر .. جنس ضعيف واهن .. جنس ضبطت أوتاره بطريقة غاية في الدقة والنظام .

ويعسك بوريس بالقلم في يده ويحاول أن يعلم ما كس العبرة . والقلم في يد بوريس يتحرك فوق الورقة في سهولة ويسر ، ولكنه يتحول في يد ما كس إلى يد مكلسة غليظة ، وتخرج الحروف مرسومة غير منقوشة . وعلى أى الحالات ، فإن طريقة بوريس في الكتابة هي الطريقة التي يؤدي بها كل شيء . طريقة مرحة .. خفيفة .. رشيقة .. سليمة ، ومحددة . إن بوريس لا ينقصه شيء سوى كتابة الحروف مشبكة حتى يتمكن من الكتابة بسرعة .

والجوع لا يشكل لبوريس أى قلق . الأغبياء وحدهم هم الذين يتلقون إذا جاعوا . ومنظر الحديقة لا يهيم في شيء ، إنه يكتفى بأن يعلق على جدار الحجرة ستارة خشبية لمنظر عام يمثل أشجاراً وأزهاراً . أما ما كس فإنه شديد التأثر بمنظر الحديقة . ولن يتورع في أن يأخذ بمقعداً ويجلس في الحديقة إذا طلب منه ذلك ، بل إنه مستعد لأن ينتظر أسبوعاً كاملاً إذا لزم الأمر ، ولن يعوزه شيء إلا الطعام . الطعام ومنظر الحديقة .

ويخاطب بوريس نفسه قائلاً :

— لا أدري ما الذى يمكن أن تفعله من أجل هذا الرجل !

وبعد فترة يستطرد قائلاً :

— حالة ميثوس منها .

ويهرز ما كس رأسه مصداقاً على كلامه . نعم ، إن ما كس حالة لا يختلف على ذلك أحد . ولكن ، أن تكون الحالة ميثوس منها ، فأنا شخصياً لا أستطيع أن أقبل ذلك إطلاقاً !

لا . . .

لا يأس مع الحياة . . لا يأس طالما بقيت فى هذه الحياة ذرة واحدة من العطف والحب !

إننا نسلم بوجود الحالات ، ونسلم بأن هذه الحالات قد تكون يائسة ، ولكن أن يكون ما كس الإنسان

لا . لا . لا . .

ما زال هناك الكثير الذى يمكن أن تفعله من أجل ما كس الإنسان . إننا سنتناول طعام العشاء ، ولذا فيمكننا أن نقدم له الطعام ، وقيصاً نظيفاً ، وحلة جديدة ، ويمكنه أن يقوم ليأخذ حماماً ويحلق شعره ، ولنؤجل فى الوقت الحالى مسألة حل المشكلة . لنقدم أولاً ما هو ضرورى ولازم . ولاشك أن بوريس يوافقنى على ذلك وإن كنت أختلف معه فى الأسلوب .

ويصيح بوريس بأعلى صوته وكأن ما كس غير موجود بيننا :

— يمكنك أن تعطيه تقوداً ياميللر وإن كان ذلك لن يحل المشكلة .

ولم لا ؟

لم لا أعطه تقوداً ؟

ولم لا أقدم له الطعام والسكن والملبس ؟

لم لا ؟

لماذا لا نبدأ من الأساس ، ثم نتدرج إلى أعلى ؟

يقول بوريس :

— لو كنت قد قابلتك يا ماكس في مانيلا لكنت قد استطعت

أن أفعل من أجلك شيئاً ، ولكنت قد ألحقتك بعمل هناك .

مانيلا ..؟ يا إلهي !! كم يبدو ذلك ثقيلاً على نفسي ! وبحق الشيطان

ما دخل مانيلا في هذه المسألة ؟ غريق يصرخ ويطلب النجاة ، ومع ذلك ،

تقول له : آه يا صاحبي لو كنت قد جعلتني أعلمك العوم !

كل واحد منا يريد أن يصلح الكون ، ولكن ولا واحد منا يريد

أن يساعد أخيه الإنسان . كل واحد منا يريد أن يخلق من الآخر إنساناً ،

ولكن ولا واحد منا يريد أن يضع في اعتباره مسألة الجسد ...

: غرور .. غرور .. غرور .. غرور ..

وبوريس أيضاً مغرور إذا كان يسأل ما كس إن كان له أقارب في

أمريكا . ياله من سؤال ساذج وسخيف ومناورة مكشوفة . إن الباحث

الاجتماعي عندما يبدأ بمباشرة مهمته يستخدم نفس الأسلوب . إنه

يسأل عن الإسم ، وعن السن ، وعن العنوان ، وعن الوظيفة أو المهنة ، وعن الديانة ، ثم في منتهى البراعة والسذاجة يقول : من هو أقرب الناس إليك .. إذا سمحت ؟ وكأن الإنسان قد نسي من هو قريبه وأصبح في حاجة إلى من يذكره بذلك . أليس من الأفضل للإنسان أن يموت ألف مرة عن أن

وهم يجلسون كالسهم على القلب . يسألون عن الإسم السرى ، وعن إسم الفضيحة ، ويسرعون إلى المكان على الفور ، ويدقون جرس الباب ، ويدخلون الشقة ليفتشوا كل شبر فيها ، ويقلبونها رأساً على عقب ، بينما أنت جالس هناك ترتعد خوفاً ، ويتصبب منك العرق في غرارة من الخزي والعار.

على أن ما كس لا يتردد في الإجابة على سؤال بوريس .
نعم يا بوريس ..

كان لما كس شقيقة في نيويورك ، ولكنه لم يعد يعلم عن مكانها شيء . كل ما يعرفه عنها هو أنها انتقلت إلى حي كوني آيلاند ، ولا شيء غير ذلك .

ومما لا شك فيه أن ما كس لم يكن له ذنب في مغادرة نيويورك . لقد كان يكسب كثيراً هناك . كان يقوم بكي الملابس ، وكان عضواً في النقابة ، وعندما حل فصل الكساد ، ذهب ليجلس في المنزلة بالقرب من ميدان الاتحاد ، وهناك اكتشف أنه ليس ذا قيمة .

فى المنزة كان يراهم وهم يمتطون صهوة جيادهم الشائخة ، ويطلبون
أن يتنحى جانبا ليفسح الطريق أمام الخيل . لماذا كانوا يطلبون منه
ذلك ؟ هل كان السبب لأنه أصبح بلا عمل حينئذ ؟ وما ذنبه
فى ذلك ؟ هل كان خطأه هو ؟ هل اقترف إثما فى حق الحكومة أو
الدولة ؟ المראה تملأ قلبه ، والحنق بلغ مداه ، وهو ممتعض من كل
شئ حتى من نفسه !

حتى الآن لا يعرف بأى حق وضعوه فى السجن ، ولا بأى حق
أذلوه وأهانوه كما لو كان دودة قذرة !

ويقول ما كس :

— أردت أن أصنع من نفسى شيئا . . أردت أن أوءدى عملا
آخر أكسب به قوتى غير العمل بيدائى طول الوقت ، وهذا ما دعانى
إلى تعلم الفرنسية ، فقد فكرت فى أن أقوم بأعمال المترجم .
ويحدثنى بوردس بنظرة خاطفة وكأنه قد وضع يده على الوتر
الحساس .

حلم كل اليهود !

الحلم فى أن لا يقوموا بأى عمل يعتمد على أيديهم .
إنهم ينتقلون من برونكس إلى كوني آيلاند لأن الانتقال من
برونكس إلى كوني آيلاند حلم آخر من أحلام اليهود ، وإن كان يعنى
الانتقال من كابوس إلى كابوس .

بوريس نفسه دار حول العالم ثلاث مرات ، ولكنه كان دائماً يعود
للتنقل بين برونكس وكوني أيلاند . وعندما كانت النازية تحكم ألمانيا
رفع اليهود شعار : « غادروا لمبرج وارحلوا إلى أمريكا » أجل . . .
الرحيل والتنقل .

سيرى أيتها الأقدام المثقلة . .

سيرى إلى الأمام ، وسيرى . .

لن تذوق طعم الراحة ، ولن تعرفي مكانا تستريحين فيه ، ولن
تكون هناك نهاية لشقاءك . ملعونة أنت ، و ملعونة أنت إلى
أبد الأبدين !

لا أمل . . لا أمل على الإطلاق !

وأنت يا بوريس . .

لماذا لا ترمي في أحضانه ؟

هل تعتقد أنني أباي بشيء ؟ أم ترى أنك مكسوف ؟ مكسوف ؟
من أي شيء أنت مكسوف ؟ أنت يا بوريس خير من يعلم أنكم جنس
ملعون ، وأنه ليس في مقدورنا أن تفعل من أجلكم شيئاً . إن كل ما
استطاعتنا هو أن نعطف على كل واحد منكم . . أنتم يامعشر اليهود
الرحل .

تقفان الآن يا بوريس وجهاً لوجه . أخا لأخ . ومع ذلك تعجز عن
معاينة أخيك ، ياله من جرم لا أستطيع أن أغفره لك !

أنظر يا بوريس إلى ما كس . إنه وجهك الآخر . إنك تدور وتلف
حول العالم ثلاث مرات ثم تعود لتقف أمام نفسك وجهاً لوجه . كيف
تسول لك نفسك أن تهرب منه . . ؟

ليلة البارحة كنت تقف في نفس المكان الذي يقف فيه ما كس
الآن ، وكنت ترتعد وتتذلل إلى كالكلب الذي ضربه سيده علة .
واليوم تقف في سترتك الأسمو كنج الجميلة ، وتغدو في حيوية ونشاط ،
ومع ذلك فلم يتغير منك شيء . أنت كما أنت يا بوريس . أنت نفس الرجل .
ذرة واحدة لم تتغير فيك . كل ما هناك أنك قد أصبحت غنيا .
أتسأله يا بوريس إن كان له أحد الأقارب في أمريكا ؟

قل لي أنت : هل لك قريب في أمريكا ؟ أعلم أنك ستقول لي أمك ،
وحسنا ما قلت . ولكن خبرني يا بوريس . . أين هي أمك الآن ؟ هل
ما زالت تعيش في حي اليهود حتى يومنا هذا ؟ هل ما زالت تقيم في تلك
الحجرة القذرة الضيقة التي هربت منها أنت ذات يوم عندما قررت أن
تصنع من نفسك شيئاً ؟ نجحت يا بوريس ، ولعلك الآن فخوراً بهذا النجاح ،
ولكنك كالفتى حتى الموت من أجل أن تحل مشكلتك . هل تظن أنه
كان في مقدورنا أن نعيدك إلى أمك في نيويورك إذا لم تكن قد نجحت ،
وإذا كنت ما زالت تقف كما يقف ما كس الآن ؟ وماذا تنتظر من ما كس
أن يقول لك ؟ هل تنتظر منه أن يقول أنه لو استطاع فقط أن يعثر على
شقيقته في نيويورك لما تردد لحظة في الارتقاء بين ذراعيها ، ولظل يعمل

من أجلها حتى آخر قطرة من دمه ، ولعاش طول حياته عبداً لها ،
ولسار وراءها كالكلب ؟ على العموم ، هو مستعد لأن يقوم بخدمة
يا بؤرس إذا استطعت فقط أن تقدم له الطعام والمسكن . ولكنك للأسف
تقول أنه لا يمكنك أن تفعل من أجله شيئاً . أعرف ذلك يا بؤرس .
أعرف ذلك تماماً ، ولكن بربك ألا تستطيع أن تفعل من أجله أى
شيء ؟ لنذهب إلى مانيلا إذا إقتضى الأمر لنبدأ الشوط من جديد إذا
أردت ، ولكن حرام أن تطلب منه أن يبحث عنك في مانيلا منذ
ثلاث سنوات . إنه يقف أمامك الآن . . يقف أمامك بلحمه ودمه .
ألا تراه يا بؤرس ؟

وأتمجه بحديثي إلى ما كس :

— تقرر يا ما كس أنه كان لك الخيار . . أقصد . . تقرر أنه
كان في إمكانك أن تذهب إلى أى مكان تختاره لتبدأ حياتك من
جديد . . فأين كنت تحب أن تكون ؟

وعلى الرغم من أنني أدرك مدى صعوبة السؤال ، إلا أنني لا أستطيع
أن أقف مكتوف الأيدي أمام حالة ميثوس منها .

إسمع يا ما كس . . إنني أحدثك في نفس الموضوع . . إنني أطلب
منك أن تنظر إلى العالم وتعتبره كأنه ينتمي إليك . أنظر إلى الخريطة . .
ضع أصبعك على المكان الذي تحب أن تذهب إليه . لا تقل ما الفائدة .
لا تقل ذلك ، فحينئذ تذهب إلى أى مكان تختاره ، فإنك تذهب إليه

بدافع من الحاجة، وقد تستطيع أن تحقق وأنت في منتهى اليأس ما يعجز
عن تحقيقه مليونير .

السفينة في الإنتظار ياما كس .

والوطن في الإنتظار . .

والعمل في الإنتظار . .

وكل شيء في الإنتظار .

لا يعوزك إلا ان توء من بما تقوم به .

صدقني ياما كس . . ربما لا يكون في جيبى فلس واحد ومع ذلك
فأنا على استعداد لأن اساعدك على السفر إلى أى مكان تحب ان تذهب
إليه . بل إننى على إستعداد أيضا لأن امسك بقبعتى وامدها للناس
لنشحن معا ، فما ايسر ان امد يدى للناس من اجلك على ان امدها
من اجل نفسى . فقط قل لى الآن إلى اين تحب ان تذهب ، وسأخرج
معك على الفور !

إلى اين ياما كس ؟

إلى القدس . . ؟

إلى البرازيل . . .

ماهو المكان بالضبط ؟

ويتكهرب ما كس . إنه يعرف المكان الذى يحب أن يذهب إليه،

بل والأكثر من ذلك أنه يتخيل نفسه في الطريق إلى هناك .
ولكن ثمة نقطة معينة تقف حائلاً دون ذلك : المال . من أين يأتي
بالمال اللازم للرحلة ؟

ولكن المال ليس بالمشكلة الصعبة يا ما كس . كم تتكلف الرحلة ؟
ألف فرنك مثلاً ؟ أعتقد أن ذلك مبلغاً كبيراً ؟

ويتردد ما كس لحظة . لا يقلقه المال هذه المرة ، وإنما القدرة .. القدرة
على السفر إلى الأرجنتين . إنه يسأل نفسه إن كانت له القدرة والشجاعة
المعنوية على أن يبدأ حياته من جديد . لقد بلغ من العمر الآن ثلاثة
وأربعين عاماً ، وهو يقول ذلك كما لو كان قد بلغ سن الكهول ، ونسى
أن تيتيان قام برحلته الخاصة من أجل الفن وله من العمر سبعة وتسعون عاماً .
وما كس قوى البنية ، موفور الصحة . لا أهمية للجرح العميق بجهته
الذي نتج بفعل بلطة حادة انزلت فوق رأسه . صحيح أنه أصلع الرأس ،
ولكن العضلات تملأ جسده ، وعينه مازالتا صافيتان .

والأسنان ؟

آه من الأسنان !

من أيام كان يشكو من ورم كبير بضراضيره . ذهب إلى طبيب
الأسنان . كشف عليه الطبيب ولم يجد عنده شيئاً . هل تعرف ماذا قال
له طبيب الأسنان ؟ قال له : لا شيء يا ما كس . لا شيء البتة . إنها

الأعصاب . الأعصاب هي التي أدخلت الفرع في حياتك .
ويفتح ما كس فيه حتى أرى أسنانه المتسوسة ، ويضرب كفا بكف
وهو يقول :
— كيف استطاع طبيب أسنان أن يعرف أن أعصابي متوترة ؟
إنه أمر محير بالفعل .

ومرة ثانية يتكهرب ما كس .
سواء كانت له أسنان أو لم تكن له أسنان ، وسواء كان أصلع
الرأس أو أحول العين أو حتى مصاباً بالآلام الروماتزم أو تورم القدمين ..
فليس لذلك أهمية بالطبع بالمقارنة بالمكان الذي يريد أن يذهب إليه .
إنه لن يذهب إلى القدس على أى حال !

إن الإنجليز لن يسمحوا بتوطيئ مزيد من اليهود في القدس . لقد
زاد عددهم الآن بالفعل ويوم أن اشتد الطلب على اليهود ، رفعوا شعار :
« القدس لليهود » ، أما اليوم فلا بد من وجود سبب أقوى من مجرد
كونك يهودياً .

يا يسوع القدير . . . إننا نعيش زمناً عصيباً هذه الأيام . لو كنت
يهودياً لما ترددت في شنق تقسى بحبل . أماى يقف اليهودى ما كس
بشخمه ودمه ومع ذلك لا أستطيع التخلّص منه حتى لو ربطت عنقه
بغاطس السفينة وقلت له : مت بجلدك أيها اليهودى .

ولكن يبدو أننى أفكر بطريقة اليأس من كل شيء . ولو أننى كنت ذلك الكلب اليهودى ماكس الذى ضربه سيده علة . . لو أننى كنت مكان ماكس . . يا إلهى . . ماذا يمكن أن يحدث ؟ إننى لا أطيق أن أتصور نفسى يهوديا بأى حال من الأحوال . أنا إنسان . . بكل بساطة إنسان . . إنسان يأس . . إنسان لا يعرف طريقا يشقه لنفسه .

والتفت إلى بوريس لاقول له :

— يجب أن تفعل شيئا من أجل هذا الرجل . هل تفهم ؟
ويهرز بوريس كتفيه ويسألنى :

— ومن أين نأتى بالمال اللازم ؟

أتسألنى أنا يا بوريس ؟ أتسألنى من أين نأتى بالمال اللازم ؟
المال ؟

ماهو المبلغ المطلوب ؟ ألف فرنك ؟ ألفين من الفرنكات ؟ أتسمى ذلك مالا ؟

طيب . . حدثنى أنت عن السيدة اليهودية الأمريكية . . السيدة الجمعاء التى تدعى جان التى كانت هنا منذ أسابيع قليلة . . ألم تمنحك ذرة حب واحدة ؟ ألم تعبك بأى شيء على الإطلاق ؟ لقد كانت تأتى إلى هنا كل يوم ، وكانت توجه إليك إهانات لاذعة ومع ذلك كنت تطعمها كما لو كنت من كبار الأثرياء . يالها من مومس لعوب لا تعرف إلا ابتذال

أموال الرجال ! لو كانت هذه السيدة بنياً رسمياً لما كانت أسوأ مما هي عليه ، ولكنها للأسف أقدر من بنى . أهانتك ، وجرحت كبرياؤك ونادتك باليهودى النتن ، ومع ذلك ظلت تقدم لها الطعام ، ولا تبخل عليها بشيء . أخال أن المشهد سيتكرر مرة ثانية غداً ، ومن يدري ؟ أى إنسان بوسع أن يأخذ منك كل ما يريد يابوريس إذا نجح فى إثارة غرورك وتملقك .

أقول لى يابوريس أنك أصبحت فى عداد الأموات ، وأنت منذ رحلت إلى الدار الآخرة وأنت تقيم جنازا طويلاً ؟ قل لى بحق الشيطان .. ياخير من يدري أنك حى ترزق . . ما معنى الموت الروحى وأمامك الآن ما كس يقف بلحمه ودمه ؟

مت يابوريس . .

مت ألف مرة ومرة . .

كل ما أرجوه منك هو أن تقبل التعرف على أخيك الإنسان . . الإنسان الحى . . وأن لا تحاول أن تخلق منه مشكلة ، فهو لحم ودم ، لحم ودم يابوريس ، وهو يصرخ ويتألم وأنت تصم أذنك عامداً متعمداً ولا تبالى بشيء ، وتظاهر بالموت أمام الجسد الحى ، أمام لحمك ودمك ! ثق يابوريس أنك لن تبجنى شيئاً ، مالم تتعرف على أخيك الحقيقى . على أخيك ما كس

أنظر يابوريس . .

كتبك الكثيرة الموضوعة فوق الرف هناك • أنظر إليها جيداً •
 أليست هي كتبك ؟ ألا تشم رائحة العفن تفج منها ؟
 إن فيلسوفك نيتشة المريض ليست له فائدة • •
 ومسيحك الحبيب الشاحب الوجه ليست له فائدة • •
 وكتبك المفضل ديستوفيسكي الجريح ليست له فائدة أيضاً • •
 كل هذه الكتب يا بوريس ليست لها فائدة ومن الأفضل أن تحرقها
 كلها ، وأهون عليك أن تهز كتبك في قنوط على أن تتباهى بأنك
 قرأت سطراً واحداً منها •
 كلام المسيح كذب في كذب • •
 وكلام نيتشة كذب في كذب • •
 وكل شيء كذب في كذب •
 ومالم تحس بوقع الكلمة في الجسد ، وتكف عن الاحساس فقط
 بما يعجبك في كتاباتهم ، وتتمكن من مواجهة الرجل المتعفن المائل
 أمامك الآن ، فإن كل شيء سيبدو لك كذبا في كذب ، وسيبدوا
 لك الجميع أغبياء • كذبة • مرضى •
 عد من حيث أتيت يا بوريس • •
 عد إلى كتبك وأدفن نفسك فيها • •
 عد وعش فيها إلى عصورك الوسطى •
 عد إلى فيلسوفك كابالا • •

مشط شعرك . . . إنغرق في هندسة الزوايا والدوائر . لم نعد في حاجة إليك . إننا نبحث عن نسمة حياة . . . عن بضيض أمل . . . عن لحظة شجاعة واحدة . . . وعن الخيال ولو كان سرايا . إننا نبحث عن العطف الإنساني حتى ولو كان مثقال ذرة واحدة ؟

* * *

وصعدنا إلى مسكني بالطابق العلوى .
حنفية الحمام مفتوحة ، وما كس انتهى من خلع كل سلابسه بما في ذلك الملابس الداخلية القذرة ، وعلق قميصه على ذراع المقعد .
وعندما يتخلع ما كس ملابسه يبدو كالشجرة المملوءة تنوءاً وتجاعيداً وكأنها قاست وتألّت كثيراً في سبيل أن تعلم السير على قدميها . إنه الرجل الذي إفتتح حانوتا لبيع العرق وقد علق قميصه على المقعد ، وظهر جسده القوي مقوساً بفعل العمل الشاق .

من لمبرج إلى أمريكا . . . ومن برونكس إلى كوني آيلاند .

آلاف مؤلفة من اليهود . . . تحطمت عظامهم ، وتقوست ظهورهم وتورمت أقدامهم ، وكانهم قد غرسوا جميعاً في بصاق .
فقدوا إيمانهم بالكفاح ، لأنهم سواء كالخفا أو لم يكافحوا ، فسيموتون أحياء .

وما زالت صورة هؤلاء الآلاف على شاكلة ما كس عالقة بذهني
عصر يوم أحد في كوني آيلاند . أجسادهم . المحيطمة تلتطخ شاطئ البحر

الجميل على امتداد أميال . العرق ينهمر من أجسامهم ليصنعوا منه بالوعة
يستحمون فيها . يرقدون على الشاطئ الواحد فوق الآخر بطريقة
متشابكة مثل أبو جلمبو والأعشاب البحرية . على مسافة غير بعيدة
من الشاطئ أقاموا أكوانا جاهزة صغيرة تتكون من حجرة واحدة
يستخدمونها كتواليت ومطبخ ومسكن للنوم . وفي السادسة صباحا
يدق الجرس في الميعاد ، وفي الساعة تجمهم منتشرين تحت الاتفاق . .
بالوعة بجوار بالوعة والروائح النتنة تفج من المكان كله وتستطيع أن
تفتك بجمل .

وأترك ما كس ليأخذ حمامه وأذهب أعد له بعض الملابس الداخلية
النظيفة ، وقد جهزت له الحلة الواسعة التي أعطاها لي الرجل ، وكل
ثقة أن ما كس سيشكرني عليها بحرارة .
وجلست أفكر في الأمور بهدوء .

ماهي الخطوة التالية ؟

لقد اتفقنا على أن نتناول العشاء في الحى اليهودى بالقرب من سان
بول ، ولقد اعتذر بوريس عن الذهاب معنا لإرتباطه بموعد على العشاء ،
ولقد استطعت أن أحتال عليه وأخذ منه بعض النقود لمواجهة مصاريف
العشاء .

وقبل أن يغادر بوريس المنزل ، مد يده إلى ما كس وأعطاه بعض
النقود القليلة قائلا :

— خذ هذا لك يا ماكس !

رأيتُه بعيني وهو يخرج النقود من جيب بنطلونه الكاوي ، ولقد تأملت كثيراً لسماعي بوريس يقول هذا الكلام لما كس ، وتأملت أكثر لسماعي ماكس يشكره بحرارة . وأنا أعرف بوريس جيداً . أعرف أن هذه النقطة هي النقطة السوداء في حياته . وعلى الرغم من أنني أستطيع أن أغفر له هذا التصرف مع ماكس ، إلا أنني لا أستطيع أن أغفره لنفسى إن كان قد بدر منى . ومع ذلك فأرجو أن لا يتبادر إلى الأذهان أن بوريس رجل فظ أو غليظ القلب . لا ، إنه ليس كذلك ، ولا هو حتى بالرجل الوضيع . كل ما هناك أنه يصرف على بعض أقربائه ، ويقوم بسداد ديونه . وهو ليس من الرجال الذين يخدعون أو يغشون . وحتى إذا تصادف أن تسبب في افلاس أحد فإنه يفعل ذلك طبقاً للقواعد والأصول ، وعلى العموم فهو ليس بأسوأ من مورجان أو روكفلر . باستطاعته أن يلعب الدور على حد القول ، ولكن الحياة ، كما يتصورها ليست لعبة على الإطلاق . إنه يستطيع أن ينتصر في أى مجال من المجالات ، ولكنه في النهاية يكتشف دائماً أنه قد خدع . وهاهو قد لعب الدور مع ماكس ، وانتصر في منتهى اللباقة . . . انتصر مقابل بعض الفرنكات القليلة التى أعطاها له ، والتى ظل ماكس يشكره عليها بكل حرارة . وأنا واثق تماماً أنه عندما يخلو إلى نفسه فإنه سيلعن نفسه

ويسبها ، وربما يصرف الليلة أضعاف ما دفعه لما كس مقابل أن يكفر
عن خطيئته !

وسمعت ماكس ينادى وهو فى الحمام ، وعندما توجهت إليه سألتني
إن كان فى استطاعته أن يستخدم فرشاة شعري ، فأذنت له بذلك •
(غداً سأشتري واحدة أخرى جديدة •) وحانت منى التفاته إلى حوض
الحمام ، ورأيت آخر قطرة من المياه وهى تختفى فى البالوعة وأحسست
برغبتي فى التقيء من منظر النفايات القذرة التى كانت تطفو فوق قاع
الحوض • وانحنى ماكس بجسده فوق الحوض وأخذ يعمل بيديه ليزيل
القذارة التى علقت به وينظفه ، فبعد أن تخلص من القذارة التى
كانت عالقة بجسده ، أصبح يحس باعتاش الآن ، ولم يعد يبالي
بإزالة القذارة من الحوض بنفسه •

ويرتدى ماكس الملابس النظيفة ، ويشيعنى بإبتسامة جديدة مختلفة
تماماً عما تعودت أن أراه بها • وبعد أن ينتهى من ارتداء ملابسه
الداخلية النظيفة ، يمسك بكتابى ويأخذ فى قراءة بعض الصفحات
الخاصة بيوريس .. الذى يطفح من جسده القمل وأنا أقوم بحلق شعر أبطه.
ثم يستطرد ماكس فى القراءة ، فيقرأ بعض الصفحات عن العلم المنكسر
فوق رؤوس الموتى من بينهم أنا . ومن يقرأ هذه الصفحات يحس
فى النهاية برغبته فى الغناء • ربما كان ذلك من دواعى الحظ ، ولك أن
تسميه كيفما تشاء ، سمى الحظ إن كان ذلك يروق لك ، فأنا وحدى

الذى يعرف تقيض ذلك ، لأنه شىء حدث لى أنا . وليس سبب ذلك
أننى لا أو من بالحظ . لا ، ليس هذا هو السبب وإنما السبب فى بساطة
هو أننى لا أعنى ما أقول . ولك مطلق الحرية فى أن تقول أننى قد ولدت
فى منتهى البراءة ، فهذه النقطة تمس جوهر الموضوع ، وعندما أعود
بذاكرتى إلى الوراء، وأتذكر الصورة التى كنت عليها وأنا لم أزل صبيا
صغيراً فى السادسة أو السابعة من عمرى ، أحس بالفعل أن شيئاً لم يتغير
قط ، وأننى مازلت كما كنت دائماً : بريثاً وتقياً . بل إنى أذكر أول
انطباعات لى عن الكون . كان الكون فى نظرى يبدو مليئاً بالخير ،
وإن كان مفزعاً ، وهو فى رأيى مازال على هذه الصورة حتى الآن . إنه
كون مليء بالخير، ولكنه كون مفزع ومخيف فى نفس الوقت . لقد كان من
السهل على أن أحس بالخوف والفرع من هذا الكون ، ولكن روحى
ظلت تقية تقية دون أن يمسه سوء ، وربما كان فى إمكانك أن تفزعنى
الآن وإن كان من الصعب أن تغير من تقاء سريرتى ، فلقد أصبح ذلك
راسخاً وقوياً داخل روحى ولا تستطيع أى قوة كانت أن تنال منى .

* * *

جلست لأكتب خطاباً كطلب ما كس . خطاب إلى سيدة فى نيويورك
على علاقة بصحيفة يهودية . أطلب من السيدة أن تبذل قصارى جهدها
فى البحث عن شقيقة ما كس فى حى كوني آيلاند بالشارع رقم ١٥٦

بالقرب من برودواي . . وهذا العنوان هو آخر عنوان يعرفه
ما كس عنها .

وسألت ما كس :

— والإسم ؟ ؟

فقال لي أن شقيقته كان لها إسمين . كانت أحيانا تطلق على نفسها
اسم « مسز فيشر » ، وكانت أحيانا تطلق على نفسها « مسز جولدبرج » .
فقلت :

— ألا تستطيع أن تذكر المنزل ياما كس ؟ أقصد . . هل تستطيع
أن تذكر إن كان المنزل الذي تقيم فيه شقيقتك يتوسط البلوك أو في نهايته ؟
ويخبرني ما كس بأنه لا يستطيع التحديد .

وأحس بأن ما كس لا يقول الصدق . إنه يكذب الآن . ولكن
لنفرض أنه ليست له شقيقة على الإطلاق ، فما أهمية ذلك عندي ؟
واضح طبعا أن هناك أكذوبة حول قصة ما كس وهي أكذوبة
لا تقدم ولا تؤخر لأنها مشكلته هو أولا وأخيراً .

وحتى تكتمل الأكذوبة ، يخرج ما كس صورة فوتوغرافية من
جيبه . . صورة التقطت له عندما كان صبيا في السابعة أو الثامنة من
عمره . . صورة أم وولدها . . صورة تكاد تحطم كل الآمال ! تبدو
أمه في الصورة امرأة جميلة ، يقف ما كس بجوارها وكأنه مقيد إليها
بجبل . وجهه يبدو قزعا بعض الشيء ، عيناه مفتوحتان على وسعهما ،

شعره منمق وممشط ، سترته مزرة حتى رقبتة ، وهما واقفان بالقرب من لبرج بجوار الحصن الكبير .

فه مأساة الجنس البشرى واضحة على وجه الأم . وماهى إلا سنوات معدودات ويكتسب ما كس تقس الملامح ، فكل طفل يولد ومعه ملامح البراءة الذكية ، وعلى عينيه السوداويتين تقاوة وطهارة الجنس البشرى بأكمله ، ولكن ماهى إلا سنوات معدودات وبعدها يبلغ الطفل سن الرشد وتتغير فيه هذه الملامح فجأة وبلا مقدمات . وبعد أن أن يتعلم هؤلاء الأطفال الأبرياء الوقوف على أقدامهم ، يتعلمون كيف يشغلون بهذه الأقدام ما كينات التعذيب ، ومن ثم يبدأ شعر رؤوسهم فى التساقط ، وتتسوس أسنانهم ، وتتلوى عظام الظهر ، وتتصلب أصابع القدمين ، وتلتهب أصابع اليدين ، ويظهر الكالو ، وتغرق الأيدي ، وتلتصق الشفاه بعضها ببعض ، وتنكفىء الرؤوس حتى تلامس صحن الطعام فوق المائدة ، ويزردون طعامهم فى صمت مطبق . وأن يظن أحد أن هؤلاء الأطفال قد ولدوا جميعاً فى منتهى النظافة ، وأن أمهاتهم كن ينظفن لهم أقطبهم بعناية فائقة كل يوم

وضعنا الصورة فى الخطاب . من الممكن أن تسترشد بها السيدة فى البحث عن شقيقته . طلبت من ما كس أن يضيف فى ذيل الخطاب بعض الكلمات العبرية — الألمانية . رسم ما كس بطريقته التى تشبه الكتابة بعضاً مكنسة بعض الحروف الكروكية ، وأعاد على مسمعى ما كتبه

ولكننى لم أصدق حرفاً واحداً مما قاله .

ثم قمنا سوياً بتغليف الحلة والقميص القذر فى ربطة من ورق الجرائد . وقد تسببت هذه الربطة فى إحساسه بالقلق . لم تكن الربطة محكمة لأننى لم أجدر دوبارة أحكم بها تغليفها ، وكان صاحبنا يريد عند عودته إلى الفندق الذى يقيم فيه أن تبدو عليه مظاهر الإحترام ، أما إذا رآه أحد حاملاً هذه الربطة ، فإنه سيخرج أيم إحراج . على أنه فى كل مرة كنا نتناقش فيها حول هذه الربطة ، كان ما كس يشكرنى بحرارة حتى أننى أحسست فى النهاية أنه إنما يريدنى أن أفهم أننى لم أعطه بما فيه الكفاية ! ولقد تذكرت فجأة أنه توجد عندى قبعة مهمة لا أستعملها ، وهى قبعة أجمل بكثير من القبعة التى يرتديها ، فاحضرتها له ، ووضعتها على رأسى لا قوم بتجربتها أمامه وأوضح له طريقة ارتدائها ، وقلت له :

— هكذا ياما كس .. اجعل حافتها مائلة إلى أسفل ، وشدها على عينيك بقوة ، ثم أطبقها قليلاً بهذا الشكل .

فقال :

— يالها من قبعة جميلة حقاً وأنت تضعها فوق رأسك ! وأحسست بالندم لأننى سأفترق عنها . على أننى أعطيتها لما كس ليقوم بتجربتها ، واستشعرت وهو يضعها فوق رأسه أنه غير متحمس لأخذها ، وأنه يجادل نفسه إن كانت القبعة ذات قيمة يستحق أن يأخذها من أجلها . على أننى اعتبرت الموضوع منتهياً من ناحيتى ، فأخذت ما كس

إلى الحمام ، ووضعت القبعة بسرعة على عينه اليمنى ، وأطبقت رأسها بطريقة تدعو إلى السخرية ، وكلى ثقة أن هذه الطريقة ستجعل ما كس يبدو للناس كما لو كان قواداً أو أحد لاعبي القمار ؛ وعلى أى حال ، فلقد وضع ما كس فوق رأسه قبعته التى تنثنى من الطرف بطريقة مقرزة ، وأدركت من ذلك أنه يفضل هذه القبعة عن الأخرى التى أعطيتها له لأنها تجعله يبدو قبيح المنظر ، ولم أجد بدا من امتداح منظرها القبيح ، فقلت له :

— فعلا يا ما كس .. إن هذه القبعة أصلح من الأخرى بكثير .
وأخذت أبعده فى الحديث عن القبعة الأخرى ، على أنه قد واثقنى الفرصة وهو يتطلع إلى نفسه مزهواً فى المرآة ، لأفتح الربطة ، وأخرج منها قميصاً وبعض المناديل وأعدت وضعها فى الدرج ثم قمت بتغليف الربطة من جديد . وغادرنا المنزل ، وتوجهنا إلى محل بقالة يقع فى نهاية الطريق ؛ وطلبت من السيدة هناك أن تغلف لنا الربطة بإحكام ، فلم تمتنع فى ذلك غير أن ما كس لم يفكر فى أن يشكرها على عملها ، ولقد برر لى ذلك بقوله أنها مستعدة لأن تقدم لى كافة الخدمات بالطبع طالما أننى أبتاع منها كل ما يلزمى من أنواع البقالة .

ثم انطلقنا إلى ميدان سان ميشيل ، وعرجنا على طريق الأرب حيث يقع الفندق الذى يقيم فيه ما كس .

ويزحف علينا الليل ذلك الوقت . وتبدأ الإعلانات الكهربائية

في التوهج على الحوائط وتصبغها بلون أبيض ناصع كالجليب .

ويتملىء قلبي بالسلام مع العالم ..

هذه هي الساعة التي تترك فيها باريس آثارها الموسيقية على روح كل إنسان . في كل خطوة نخطوها لا ترى عيوننا إلا بدعة جديدة من بدع الفن المعماري . قاليوت تبدو في الحقيقة متشابكة مع بعضها البعض كالنوتة الموسيقية ، وتوحى إليك برقصات النويت الجذابة ، والفالس الهادىء ، والمازوركا البولندية ، والأنغام الحاملة .

وتتعمق في المباني والأحياء القديمة . تترك سان ميشيل إلى سان سفيرين ، ونسير في الطرق الضيقة الملتوية التي كان يرتادها دانتى ، ودا فنشى ، وأخذت أبين لما كس مدى عظمة الأما كن المجاورة لمسكنه ، وروعة العلاقات الكثيرة الموجودة حوله ، وحدثته عن أسلافه دانتى ، ودا فنشى ، فسألنى :

— ومتى كان ذلك باميللر ؟

فقلت له :

— حوالى القرن الرابع عشر يا ما كس .

ويصبح ما كس قائلاً :

— تماماً باميللر .. تماماً .. لم يكن هناك خير على وجه الأرض قبل

ذلك التاريخ ، ولم يعد هناك خير على وجه الأرض بعد ذلك التاريخ ، وقضى الأمر .

وبعد قليل يعود ما كس ليسألنى :

— على أى حال ياميللر ، إن كان هذا الحى يروق لك ، فأنا على استعداد لأن استبدل معك مسكنى ؟

* * *

ونرتقى درجات السلم إلى حيث يقيم ما كس بغرفة بالطابق العلوى من الفندق. ودرجات السلم مغطاة بالسجاجيد حتى الطابق الثالث ، وما دون ذلك مغطاة بطبقة من الشمع تجعل المرء ينزلق وينسكب على وجهه. عند كل طابق توجد لافتة تنهى المستأجرين عن القيام بأعمال الطهى أو الغسيل داخل الغرف. كما توجد لافتة عند كل طابق تشير إلى دورة المياه :

وعندما تتسلق درجات السلم ، تستطيع أن تمد يدك من النافذة وتصافح جارك ، فالحجرات ملتصقة ببعض ، ولا يفصل بينها شئ .

والغرفة التى يقيم فيها ما كس غرفة صغيرة وضيقة وإن كانت نظيفة. فى ركن منها يوجد صنوبر للمياه، وفى ركن آخر يوجد كومودينو، وعلى الحائط توجد بعض المسامير التى تستخدم كمشاجب للملابس ، وفوق السرير يتدلى مصباح كهربائى باهت اللون . ويدفع ما كس إيجاراً لهذه الغرفة قدره سبعة وثلاثون فرنكا فى الأسبوع، وهو مبلغ لا بأس به، وبإستطاعته أن يستأجر غرفة أخرى بإيجار قدره ثمانية وعشرون فرنكا فى

الأسبوع ، ولكن مثل هذه الغرف غالباً ما تكون بدون
صنبور مياه .

وتركت ما كس يسب ويلعن من جراء ضيق الغرفة، وذهبت ناحية
النافذة ، وأخذت أتطلع منها . ولقد شدنى كثيراً منظر امرأة شابة
كانت تنحني بجذعها فوق حافة الشرفة التي تطل منها ، وقد فتحت
عينها في بلاهة ، وأخذت تحمق في الحائط المواجه لها الذي لم تكن
به أى شرفات . وكان يوجد على مقربة منها بعض أصص الورد
الصغيرة ، وتعدى من خطاف حديدى أسفل الشرفة قطع القماش التي
تستخدم في تنظيف المواعين . وبدت لى السيدة وكأنها في حالة انتشاء
جم ، حتى أنها لم تحس أننى أقف بجانبها وارقبها عن كثب . ولعلها
تحس في غرفتها بالراحة والسلام على الرغم من أنها لم تكن بأرحب
من الغرفة التي تقف فيها الآن . وهى بلا شك ترقب بشغف هبوط
الظلام حتى تنزلق إلى الطريق . وهى وإن كانت لا تعرف شيئاً عن مجد
أسلافها العظماء ، إلا أنها تحمل في دماغها بكل تأكيد آثار الماضى
وتواصل به حاضرها الكثيب دون مشقة أو تعب ! .

وبحلول الليل ، يتدفق الدم حاراً في عزوقى ، ويتنابنى إحساس
قدسى حول الغرفة التي أقف فيها . بعد أن أترك ما كس الليلة ، ربما
يلقى بكتابى فوق الوسادة وينكب على قراءته بعيون مشغلة . لقد أهديت
له الكتاب بكلمة قلت فيها : « إلى صديقى ما كس . . . إلى الرجل

الوحيد في باريس الذى يعلم فعلا حقيقة المعاناة والألم . . . « وكان
يراودنى إحساس غريب وأنا أخط هذه الكلمات أن كتابى قد فرض
عليه أن يسافر في رحلة بعيدة . . . رحلة غامضة شاذة ، ولم أكن قلقاً
على ما كس بتدر ما كنت قلقاً على أولئك الذين قد تصيبهم الدهشة من
جاء قراءة هذه الكلمات . ورأيت كتابى ملقى بالقرب من نهر
السين . . . صفحاته ممزقة . . . آثار أصابع الإبهام واضحة عليه . .
خطوط هنا وخطوط هناك أسفل الكلمات . رسومات على الهوامش . .
بقع من القهوة تلتخ صفحاته ، ورجل يدفع به إلى جيب معطفه الثقيل .
رحلة غامضة . . أرض مجهولة . عند خط الإستواء يبعث إلى رجل برسالة
يقول لى فيها : « لقد رأيت كتابكم ملقى فوق منضدة مزادات
تحت لوح من الزجاج ، وكان الدلال يطرق فوقه بعصاه فى عنف » .
وتمر السنين ، ويتغير وجه الدنيا ويتبدل ، ولكننا نعود إلى الغرفة
الضيقة حيث مازال يقف فيها الرجلان . الغرفة أشبه بغرفتنا ، إن لم
تكن هى بالفعل . فى الغرفة المجاورة توجد امرأة شابة تستند بجذعها
فوق حافة النافذة ، وأصص من الورد منتشرة أمامها ، ومن الخطاف
الحديدى تتدلى أقمشة تنظيف المواقين ، وأحد الرجلين محطم تماماً حتى
الموت ، والغرفة التى يعيش فيها غرفة ضيقة للغاية ، أشبه بزنزانة سجن ،
وهو يتوقع أن يجود عليه الليل بالراحة والطمأنينة ، وإن لم يجد عليه
الليل بالراحة والطمأنينة ، فليمتحه الأمل على الأقل ، ولكن هيهات

وهيئات . ها هو يمسك بالكتاب الذي أعطاه له الرجل الآخر ويحاول أن يستمد لنفسه الشجاعة منه ، ولكنه لا يستطيع ، فيلقى بجسده المهك فوق الفراش ويتألم بشدة . على أن الأيام والليالي ستطويه كما تطوى الكوارث والمصائب .

وإذ أقف في هذه الغرفة بجوار ذلك الرجل الذي استعصت عليه كل أنواع المساعدة ، لا أجد إلا خبرتي بالعالم وبالناس وبالرجال تصرخ في قسوة وفي صمت . الموت . الموت . لا شيء غير الموت . . بالموت وحده يستطيع هذا الرجل التخلص من كل آلامه وأحزانه ، ولم يعد في الإمكان عمل أى شيء ، بل إن كل شيء أصبح ، على حد قول بوربس ، عقيا وغير مجد !

* * *

والأضواء في الخارج قوية ، وطريق الأرب غاص بالناس . . وعلى جانبي الطريق بعض العمال يقومون بإنشاء مظلة . أحدهم اعتلى سلما في منتصف الطريق . بنطلونه واسع كالركبية . . ينظر إلى زميل له ويطلب منه أن يعطيه بعض العدد اليدوية . على الناحية الأخرى من الطريق ، يوجد مطعم يوناني صغير ، شرفاته تزينها إصص التراكونا، والشارع كله يبدو في حالة من الزيف والخديعة . أناس مرضى ، وأناس فقراء ، ومن تحت أقدامنا سراديب مكتظة بعظام الموتى ! .

ونأخذ جولة حول المبنى .

ويحاول ما كس أن يعثر على مطعم مناسب تتناول فيه وجبة
يبلغ محدد لا يزيد عن خمسة فرنكات ونصف . وعندما أظهرت
لما كس عدم موافقتي على هذا الاقتراح ، أشار بيده وهو في غاية
الإرتباك نحو مطعم دى لو كس يقدم وجبة غذائية في حدود ثمانية عشر
فرنكا ، وأحسست أن ما كس قد فقد كل إحساسه بقيم الحياة !

وعدنا مرة ثانية إلى المطعم اليوناني، ووقفنا ندرس قائمة الطعام الملصقة
بواجهة المطعم الزجاجية ، وكان ما كس يخشى أن تكون الأسعار
مرتفعة . ولقد حانت مني إلتفاته إلى الداخل ، فراعني أن أرى المكان
غاصاً بعدد كبير من البنايا والعمال ، وقد ترك الرجال قبعاتهم فوق
رؤوسهم. كانت أرضيه المطعم مغطاة بطبقة من نوشارة الخشب ، وكانت
الأضواء خافتة ، مما جعلني أحس بأنه المطعم المناسب فعلاً للحصول على
وجبة شهية من الطعام .

وأجذب ما كس من ذراعه، وندخل المطعم.

وتدلف من باب المطعم في هذه الأثناء بغى تترنخ سكرأ وتسلك أسنانها
من فضلات الطعام ، ولقد شيعتها بنظري حتى التقت بزميلة لها كانت
تنتظرها خارج المطعم مستندة على عمود نور، ثم اتجهتا معاً إلى سان سيفرن،
وأعتقد أنهما ذاهبتان لتلقيان بنفسيهما وسط حلبة الرقص أمام باب
الكنيسة ، وترقصان على أنغام الأوكورديون ، ولا بد أن دانتى قد فعل

نفس الشيء ذات يوم — من أجل الحصول على كأس بالطبع !
وكان من الواضح أن كل مظاهر العصور الوسطى موجودة خارج
باب المطعم ، ولم أكن قد تخلصت منها تماماً ، فقد خطوت خطوة
داخل المطعم وأبقيت الأخرى خارجه .

ولم يكن ما كس مهتماً بما يأكل أو يشرب ، وإنما كان اهتمامه
منصباً حول نقطة واحدة وهي أن لا يكون سبباً في تفريري مبلغاً
كبيراً من المال . وكنت في الواقع أهدف إلى الزوغان منه فور الانتهاء
من تناول الطعام لأنه كانت لدى رغبة في التجول في الأحياء المجاورة ،
وسأقول له أنني مشغول ، وأني مضطر للقيام ببعض الأعمال ، وسيسعده
بالطبع أن يسمع مني ذلك .

وبدأ ما كس يدرس قائمة الطعام ، وأحسست بصلعته تتوهج
تحت الأضواء الخافتة ، ولا شك أنه لو كان ما كس يعيش في القرن
الرابع عشر ، لكان قد أصبح نجاراً أو بناءً ، واني لأخاله الآن
واقفاً على السقالة وممسكاً بالمعول بين يديه .

وكل شيء في المطعم يوحى بالجو اليوناني . الزبائن يونانيون ،
وأصحاب المطعم يونانيون ، والأطعمة التي تقدم فيه أطعمة يونانية ،
واللغة المتبادلة فيه هي اللغة اليونانية أيضاً .

وطلبت لنفسي طبقاً من الباذنجان المطبوخ بورق العنب ، وهو
عبارة عن فطيرة من الباذنجان بصلصة اللحم الضاني ، ولعله الطبق

الوحيد الذى يجيد اليونانيون صنعه .

ولقد ظل ما كس صامتاً لا يتكلم أو يثبت يثبت شفة حتى فرغ من تناول نصف طعامه ، وحينئذ انفجر فى الكلام بلا مقدمات ، ودون أن أعرف سبباً واضحاً يدعو به إلى ذلك

وبقدر ما استطيع أن أذكر الآن ، كان ما كس فى زيارة لسيدة فرنسية عندما وجد نفسه يجهش بالبكاء دون سبب من الأسباب .
ويا له من بكاء ! .

حاول مراراً ومرات أن يكف عن البكاء ، ولكن محاولاته كانت تبوء بالفشل دائماً .

ألقى برأسه فوق المنضدة ، وظل يبكي بالساعات كطفل صغير يائس . وفكرت السيدة الفرنسية ، وقد تملكها الذعر مما رأت ، أن تتصل بطبيب لئيجدها ، وانتاب ما كس شعور بالخجل من نفسه .
آه . . لقد تذكر ما كس سبب بكائه الآن . .

ذهب لزيارة السيدة الفرنسية وهو فى غاية الجوع ، ثم حان موعد الغذاء . فلم يستطع ما كس أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك ، فهب واقفاً على قدميه ، وطلب من السيدة الفرنسية أن تقرضه بعض النقود ، فأجابته السيدة لطلبه فى الحال ، وهنا أصابه الذعر مما حدث ، والمصيبة أنه حدث من سيدة فرنسية !
كم أنت بائس وشقي يا ما كس ! !

كيف تسول إليك نفسك أن تمد يدك إلى سيدة فرنسية فقيرة وتأخذ
منها دراهم قليلة وأنت الرجل القوي العنق ؟
كيف يحدث ذلك يا رجل ؟ وأين ذهب كبرياؤك ؟ وماذا بقي
لك في الوجود إذا كنت تمد يدك إلى امرأة ؟
ومن هنا كانت البداية .

وكما تذكر ما كس هذه القصة ، لا تمر دقيقة واحدة حتى تسيل
دموعه غزيرة على خديه ، ويلقى برأسه فوق المنضدة ، ويظل يبكي
وينتحب كما فعل تماماً أثناء زيارته للسيدة الفرنسية .
وكان المنظر رهيباً بالفعل !

وبعد قليل استعاد ما كس هدوءه ، ثم قال لي :
— أتدرى ياميللر انه يمكنك أن تطعني بخنجر أو أن تفعل بي
ما تشاء ، ولكنك لا تستطيع ابداً أن تمنعني من البكاء . لا تظن أنني
أبكي لسبب أو لآخر . إنني أبكي لمجرد البكاء ، وهو شعور لا يستطيع
التغلب عليه أبداً .

ويتوقف عن الكلام الحظه ، ثم يقول :
-- هل تعتقد أنني مصاب بتوتر في الأعصاب حقاً ؟ لقد قالوا لي
أن مرضي عبارة عن أزمة عصبية . هذا يعني الإنسحاق ياميللر ،
أليس كذلك ؟

ومرة ثانية تذكر ما كس طيب الأسنان الذي قال له أن أمره

لا شيء ، وأن كل ما يعانى منه هو اضطراب فى الأعصاب . كيف توصل
طبيب أسنان أن يكتشف ذلك؟ هذا هو اللغز الذى يحير ما كس ، والخوف
كل الخوف ، أن تكون هذه الاضطرابات بداية لأمر أسوأ وألم .
وهو يتساءل إن كان ذلك سيؤدى فى نهاية المطاف إلى الجنون مثلاً ، إنه
لا يريد ان يعرف إلا الحقيقة ، ولا شيء غير الحقيقة .

ولا أدري بحق الشيطان بماذا أجيب عليه . هل أقول له أن الأمر
لا شيء ، ولا يهدو عن كونه توتراً فى الأعصاب ، وأن هذا لا يؤدى
إلى الجنون ؟

— كل شيء سيزول يا ما كس بمجرد أن تقف على قدميك .

— ولكن لا يجب أن أبقى وحيداً طول الوقت يا ميللر .

آه .. فهمت الآن ، وعلى أن آخذ حذرى . إن ما كس سيطلب منى
أن أذهب لزيارته بين الحين والآخر ، ولذا أستفسر منه :

— هل تريد نقوداً يا ما كس ؟

— لا .. لا .. لا . أقسم لك يا ميللر أننى لا أريد نقوداً على الإطلاق .

كل ما أريده هو ألا أعيش وحيداً طول الوقت .

— هون عليك يا ما كس .. إننى سأتى دائماً لزيارتك برفقه بوليس ،
وسنحاول بقدر المستطاع أن نبعد عنك شبح الهم .

ولكن ما كس لا يعيرنى انتباه :

— أحياناً يا ميللر عندما أعود إلى غرفتى بالفندق .. أحس بالعرق

ينساب فوق وجهى كما لو كان قناعاً أرتديه ، ولم أعد أدري سبب ذلك .

— ليس فى الأمر شىء يا ما كس . أنت قلق بعض الشىء ، ثم أنك
تتناول كمية كبيرة من الماء ، أليس كذلك ؟

ويهرز رأسه على الفور موافقاً ، ولكنه بعد قليل يشيعنى بنظرة
ملؤها الفزع والدهشة ، ويسألنى :

— بربك كيف عرفت ذلك ؟ كيف عرفت أننى أحس بالعطش
طول الوقت ؟ حقاً يا ميللر إننى أجرى إلى الصنبور باستمرار لاشرب ،
وما عدت أعرف حقيقة أمرى بالضبط !

وبعد برهة يسألنى :

— أحقا ما يقولون ياميللر ؟ يقولون أنك إذا مرضت هنا فإنهم
يقتلونك على الفور . قالوا لى أن من يمرض وليس له أهل فى البلدة فإنهم
يقتلونه خاصة إذا لم تكن معه نقود . هذا الموضوع يشغلنى باستمرار ،
وأتساءل عما قد يحدث لى لو أننى مرضت فى يوم من الأيام . اللهم ارحمنى
ولا تفقدنى الصواب . إن هذه القصص الرهيبة التى سمعتها عن الفرنسيين
تدخل الرعب فى قلبى . إنهم سىتركوننى أموت أمام أعينهم دون أن
يفعلوا من أجل شىء . إنهم أناس خلت من قلوبهم الرحمة . أصبح
المال هو كل شىء . يارب لا تجعلنى يوماً أتذلل لهؤلاء الفرنسيين طلباً
للرحمة . إننى على الأقل أحمل هوية الآن ، ولكن الأوغاد جعلونى سائحاً .
بالله كيف يتوقعون منى أن أعيش ؟ أحياناً أجلس لا راقب الناس وهم
يجيئون ويروحون وكل واحد منهم له عمل يؤديه إلا أنا . أنا الوحيد الذى

يجلس طوال الوقت بلا عمل على الاطلاق . كنت أسأل نفسي أحياناً :
ماذا جرى لك يا ما كس ؟ لماذا أنت هكذا عاطل ؟ قد لا تدرك يا ميللر
أن الجلوس طول الوقت بلا عمل شيء قاتل بالفعل . لقد كنت أنا أول
من يرسلون في طلبه حينما يشتد الإقبال على الأيدي العاملة في موسم
العمل . آه من الفرنسيين ! إنهم يعرفون من هو ما كس ، ولكنهم
للأسف لا يعرفون شيئاً عن الكي . إن ما كس هو الذي علمهم حقيقة
الكي . كانوا يغطونني في الساعة اثنين من الفرنكات لأنه ليس لي الحق
في العمل . أترى كيف يستطيعون استغلال رجلاً أبيض في بلد ينضح
بالقمل ؟ لقد جعلوا منه متسولاً !

وبعد فترة صمت قليلة ، يستطرد ما كس قائلاً :

كنت تحدثني يا ميللر عن جنوب أمريكا ، وقلت لي أنه من
الممكن أن أسافر إلى هناك وأن أبدأ حياتي من جديد . حسناً
يا ميللر .. إنني لم أتخطى بعد مرحلة الشباب ، وغاية ما في الأمر
أن معنوياتي محطمة خاصة وقد قضيت عشرين عاماً أقوم فيها بكي
الملابس . أرى أنني عما قريب سأصبح كهلاً . لقد اندثرت حرفتي
بالفعل ، ولم يعد أملك أمل إلا أن أؤدي بعض الأعمال الخفيفة
التي لا تعتمد على اليدين ، ولعل هذا هو سر تعلمي الفرنسية حتى
أقوم بأعمال الترجمة . إن بعد عشرين عاماً من الإمساك بالمكواة
لا تجد أصابعك على طبيعتها كما كانت من قبل ، وإنما تحس

بالامتناع من تفكير حتى لمجرد التفكير في ذلك . لقد ظلمت
عشرين عاماً واقفاً طول الوقت فوق مكواة حامية تنبعث
منها رائحة لعينة . مجرد تفكيرى فى هذه الرائحة يجعلنى أحس
برغبة فى التقيء . هل تظن أنه من الصواب أن يظل الإنسان
واقفاً على مكواة حامية طول اليوم ؟ لماذا إذن خلق الله الخضرة
والأشجار ؟ ألم يعد لما كس أى حق فى الاستمتاع بهذه الأشياء
أيضاً ؟ أيجب أن نبقى عبيداً طول أيام حياتنا ؟ أيجب أن نبقى
عبيداً للمال ، وأن نعمل فى سبيل الحصول على المال ؟

* * *

فرغنا الآن من تناول القهوة بشرفة إحدى المقاهى .
أحاول أن أتملص من ما كس .
إننا لم نستقر على شئ بعد ، ولكننى وعدته بأن أكون على اتصال
به دائماً .

* * *

أسير الآن بمفردى فى البوليفار بالقرب من سان ميشيل بعد
أن صررت بحديقة اللوكسمبرج .
من المحتمل أن ما كس مازال جالساً حتى الآن بالمقهى ، فقد طلبت
منه أن يبقى بعض الوقت بدلا من العودة إلى غرفته ، ولكننى واثق
تماماً أنه لن يطول به الجلوس ، ولا شك أنه قد غادر مكانه الآن وذهب
يتجول هنا وهناك . وعلى أى الحالات ، فإن التجول خير من لا شئ ،

ولعله خير للإنسان أن يتجول ليتسول لنفسه قليلاً من الدراهم يعيش منها على أن يجلس بلا عمل . ونحن في فصل صيف الآن ، وهناك بعض السواح الأمريكيان في البلد ، وإن كانت المشكلة أن الأمريكيين لم يعد معهم نقودا كثيرة، فتحن ليس في عام ١٩٢٧ أو عام ١٩٢٨ حينما كانت تمتلئ جيوبهم بالنقود مثل القمل في شعر الرأس ، فالأمريكيون يفضلون الآن قضاء وقتاً طيباً في حدود مبلغ لا يزيد عن خمسين فرنك .

* * *

سكون مطبق كالوت يخيم على الاوبرافاتوار .

بالقرب من حائط مبنى متهدم ، تقف مومس بمفردها ، ويبدو عليها التراخي والكسل .. لا تقوى على القيام بأى حركة تجذب بها الزبائن . مومس يائسة .. مومس محطمة تتكدس تحت قدميها أكوام من النفايات المبعثرة .. أوراق الأشجار المتساقطة .. أوراق الصحف القديمة .. علب صفيح فارغة .. فروع أشجار مكسرة .. أعقاب سجائر ، وما شابه ذلك . وتبدولى وكأنها مستعدة لأن تلقى بنفسها وسط هذه النفايات ، وتظل تتمرمغ فيها وليكن يوماً من أيام حياتها !

* * *

طريق سنان جاك طريق طويل مخفوف بالأكواخ الخشبية التي تبدو كفتارين العرض . من داخل هذه الأكواخ الصغيرة تنبعث أصوات الأمريكيان عبر الأثير . أصوات رقيقة أشبه بالهلوسة . الظلام الدامس

ينتشر داخل الأكواخ . والمشهد يجمع بين مظاهر العصور الوسطى ومظاهر العصر الحديث . واحد من قدماء المحاربين يدفع نفسه فوق مقعد ذو عجل • عجازه بجانبه • من خلفه تقف سيارة ليموزين في إنتظار إنهاء إجراءات الجمارك حتى تنطلق بأقصى سرعتها • أجهزة الراديو على مختلف أنواعها تثبت مؤشراتها على موجة واحدة تذيع تلك الأغنية الأمريكية القدره : « إننى أوّمن بالمعجزات » •

يا يسوع المسيح ! !

معجزات • • معجزات • • معجزات •

إن المسيح نفسه ما كان يستطيع أن يأتى بمعجزة واحدة فى هذا العصر !
« خذوا كلوا واشربوا • • هذا هو جسدى الممزق أعطيه لكم » •
وفى هذه الذكرى الألفية ، تعرض المحلات الدينية صلباناً رخيصة الثمن •

يهودى مسكين يصلب فوق خشبة الصليب وفى يديه وقدميه تدق المسامير من أجل أن نقال الحياة الأبدية • ونحن لم نكل الحياة الأبدية بعد ، على الرغم من وجود الإطارات الكاوتشوك ، والمباني الخرسانية ، وعلى الرغم من اكتشاف المذياع ومكبرات الصوت ، ومن وجود بغايا بأرجل خشبية ، ومن توفر السلع وتكديسها حتى أنه لم يعد هناك أى عمل يقوم به عاطل واحد !

* * *

« أنا خائف يا ميللر من البقاء وحدى طول الوقت » .

عندما يدخل ما كس غرفته بالطابق السادس من الفندق ، يبدأ العرق يسيل منه « كما لو كان قناعاً يضعه فوق وجهه ! »

« . . . لا شىء يجعلنى أبكى . . ولا حتى إذا طعنتنى بخنجر . إني أبكى للاشىء . هل تعتقد يا ميللر أننى مصاب بالجنون ؟ إني سأظل أبكى وأبكى ولن أكف عن البكاء يوماً » .

أحقاً ما كس مجنون ؟

يا يسوع !!

أنصت يا ما كس . .

إن العالم كله مجنون . .

أنت مجنون . .

أنا مجنون . .

كل إنسان فى هذه الدنيا مجنون . .

والعالم كله ينضح قيحاً وألماً !

والآن هل تسمح لى ياما كس أن أسألك إن كنت قد ملأت ساعتك ؟
أعلم أنك ما زلت تحمل واحدة ولقد رأيت سلسلتها مدلاة من جيب
صدىرى قميصك . أعلم أنك تتألم من معرفة الوقت . ولكن إذا أردت
فعلاً أن تعرف الوقت الآن ، فأنا على استعداد لأن أحده لك بالدقيقة
والثانية . . ليكون معلوماً لديك أن الرقت الآن خمسة دقائق تماماً قبل

أن ينسدل الستار على الفصل الأخير • عندما تدق الساعة الثانية عشر عند منتصف الليل ، ستكون هذه علامة النهاية ، وحينئذ سيكون في وسعك أن تجرى إلى الشارع ، وأن تخلع ملابسك كلها ، وأن تلقى بها في الطريق ، ولن تكون وحدك الذي يفعل ذلك ، وإنما سينطلق معك كل فرد ، وسيشعر الجميع أنهم قد ولدوا من جديد ، وهذا هو السبب في أنهم كانوا يقيمون المظلة هذا المساء . فقد كانوا يستعدون لوقوع المعجزة • حتى السيدة الشابة التي كانت تطل من النافذة بجوار غرفتك • هل تذكرها يا ما كس ؟ لقد كانت هي الأخرى تحلم بالفجر ، وكانت تحلم بهاء جسدها عندما تندس وسط الجموع وقد تجردت من ملابسها تماماً .

منتصف الليل

لم يحدث شيء •
الساعة الآن الثامنة صباحاً ، والدنيا تمطر •
يوم مثل كل الأيام •
في الظهر ، وصل ساعي البرد •
ناولني خطاباً • بدى لي الخط مألوفاً • فضضته على عجل ولقد سح ما توقعت • لقد كان الخطاب من ما كس :
« يا صديقاى العزيزان : ميلر وبوريس • •
أكتب لكما هذه الكلمات القليلة وقد استيقظت من نومي في الثالثة صباحاً • لم أعد أستطيع النوم • أعصابي متوترة جداً •

أبكي طول الوقت ولا أستطيع أن أكف عن ذلك. أحس دائماً كما لو أن موسيقى يتردد صداها في أذناي ، ولكنها في الواقع صرخات تجلجل سكون الليل . انهال أحد القوادين بالضرب على رأس بغى . . وياله من صوت مؤلم لا يطيقه بشر ! .

المياه تنساب من الصنبور فوق الحوض . عيناى لا تغفلان أبداً . اقرأ كتابك يا ميللر لأحاول أن أهديء من روع نفسي . كتاب مسلي بحق ، ولكن صبرى قد نفذ . أرقب طلوع شمس النهار حتى أجري إلى الطريق .

طول الليل وأنا أعانى . لم أكن رغماً عن ذلك جوعاناً . أصبحت أخشى أن يقع لي مكروه لا أعرف كنهه ، وأصبحت لا أدري ماذا حدث لي بالضبط . تجدني كثير الكلام مع نفسي . لا أستطيع أن أضبط أعصابي . إني أطلب منك يا ميللر أن تكف عن مساعدتي . دعنا نتحدث قليلا مع بعض .

هل تظن أنني طفل ؟

هل تتخيل أنني فقدت الشجاعة وأنتى أكاد أفقد عقلى أيضاً؟ لا تظن يا عزيزى ميللر أنى محتاج إليك مادياً . أبداً . اننى محتاج فقط إلى أن أتحدث إليك، وأن أتحدث إلى بورييس . لست محتاجاً إلى المال ، فيكفينى مساعدتك المعنوية .

أنا خائف من غرفتي .

أنا خائف أن أنام لوحدي .

أهذه نهاية المطاف فعلا؟ إن الأمر يبدو كذلك . . لقد لعبت
بآخر ورقة في يدي . . إنني قادر على الإنجاب ، وأنا أرقب
الصباح حتى أهرع إلى الشارع .

أتضرع إلى الله عز وجل أن تمر هذه الليلة الرهيبة بسرعة .
إنها ليلة رهيبة بالفعل كلها ألم وكلها كرب ، ولم أعد أطيع جوها
أو حرارتها .

لا تظن أنني سكران . إنني أكتب لك هذه الكلمات لمجرد
أنني أريد أن أتسلى معك وحتى أضيع الوقت ، وهذا يعطيني
الإحساس بأنني أتكلم معك ، وبالتالي أرتاح . . أرتاح على
الرغم من أنني أخاف من البقاء بمفردي في الحجرة .
ما الخبر يا ميللر ؟

المطر ينهمر في الخارج الآن . أطل من نافذة غرفتي . أحس
بشيء من التحسن . أخال أن الأمطار تهمس في أذني ، وإن
كان الصباح لن يأتي .

أخشى إذا مرضت يا ميللر أن يفتك بي الفرنسيون .
إنني غريب كما تعلم عن هذا البلد . . فهل تظن أن ذلك
حقيقي ؟ قالوا إنني إذا كنت غريباً وليس لي أهل يرعونني ،
فإنهم سيفتكون بي على الفور بدلا من أن يقدموا لي العلاج

حتى وإن كان هناك أمل في الشفاء .

أخشى أن لا يقتلني الفرنسيون ، وبذا لا أرى الفجر على الإطلاق .

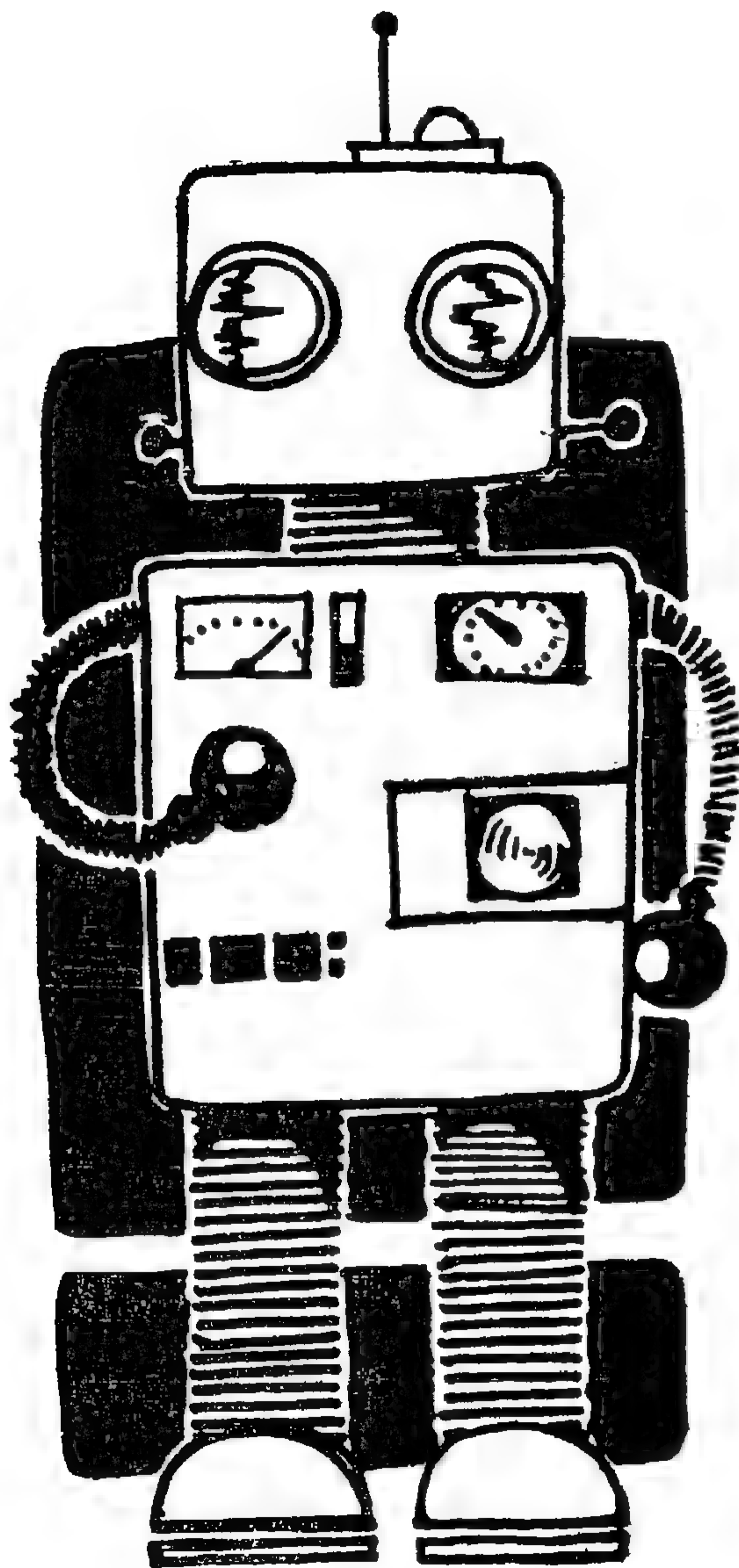
يا إلهي !! .

إنني محتاج إلى أن أكون شجاعاً ، وأن أحكم ضبط نفسي .
رغبتى في الخروج الآن إلى الشارع قد فترت . ربما إذا
خرجت يشتبه في أمرى زجل البوليس ويحرر بيانات خاطئة
عني . لو كنت واثقاً من العكس ، لكنت قد خرجت لأننى
في الواقع لا أطيق البقاء هنا أكثر من ذلك .

ميللر . . . إننى خائف دائماً . إن الخوف يطاردنى ليل نهار .
هل أستطيع أن أراك ؟ أريد أن أتحدث إليك ولو قليلاً .
لا أريد منك أى تقود . إننى أكاد أجن !

المخلص ما كس

بيسكو دربيلي



لا أدري حتى الآن كيف تمكنت في النهاية من إنجاز عمل مثل رواية « الضفيرة ». كانت تحيط بي المشاكل من كل جانب.. مشاكل منزلية ، ومشاكل مالية . والحى الذى كنت أعيش فيه حى قدر ، والحجرة التى كنت أشغلها أثناء عملى بهذه الرواية كانت حجرة ضيقة للغاية ، شديدة البرودة ، وشديدة الحرارة . ومشاكل أخرى من هذا القبيل . وكانت ابنتى الصغيرة «فالتين» تأتى إلى نافذتى من وقت لآخر، وتقرع يدها فوق اللوح الزجاجى . . . وتطلب منى أن أخرج للعب معها ، فكنت أدعوها أحياناً إلى مكتبى حيث أقوم بتمثيل دور الطبيب أو المحلل النفسانى ، وفقاً لظروف الحالة . وكنا ننخرط فى دردشة طويلة عن آلامها الوهمية فى جو يشع بالفرح والسعادة ، وكانت هذه الجلسات هى الجلسات الوحيدة التى كنت أهرب فيها من الكتابة ، وأعطى لنفسى قليلاً من الراحة ، وإن كان ذلك لم يمنعنى فى النهاية من كتابة فصول طويلة من المرح والخيال الخصب .

أما الشخصية التى أوحى إلى بكتابة قصة « ييكودريبى » فقد كان رجلاً إيطالياً ، إعتاد أن يأتى من وقت لآخر إلى الحانة التى افتتحها لبيع الخمر فى القرية . وأذكر أن ذلك كان ما بين عامى ١٩٢٥

و ١٩٢٦ • وهو متحدث لبق ، صاحب فكته ، ساخر ، مثقف ،
واسع الأفق ، سريع البديهة • ومن الطبيعي أن لا يكون هذا الرجل
هو الشخص الذى روى على مسمعا هذه القصة ، وإن كان ذلك لا يعنى
أنه لم يكن فى استطاعته أن يفعل ذلك ، فهى من طباعه ، ومن خصائصه
الأدبية والفنية • ولم يكن دورى الذى قمت به سوى تسجيل ما سمعته
من « الصوت » كلمة كلمة دون أدنى تغيير •

* * *

القصص والحواديت التى كان يرويها لنا كاتشى كاتشى • •
كانت كلها تدور حول مدينه فلورنسا العظيمة ، وعن شعبها المجيد •
وهى قصص خيالية ، من صميم اختراعه ، كان يقصها علينا وقد أضفى
على نفسه هبة أهل فلورنسا ولعلنا ندهش قليلا إذا عرفنا أنه لم يرى
إيطاليا منذ بلغ الثانية من عمره • • كان يعيد على مسمعا بعض منها بعد
أن يدخل عليها قليل من التغييرات والتعديلات • • على أن الأمر كله
كان يرتهن بحالة المستمعين ، ومدى استيعابهم للقصة ، وتشوقهم
لمواصلة الإستماع إليها •

ومن القصص الطريفة التى رواها لنا كاتشى كاتشى ، قصة
إنسان آلى عاش فى القرن الثانى عشر ، اخترعه أحد علماء العصور
الوسطى ، لم يتمكن كاتشى كاتشى من تحديد اسمه على وجه
الدقة ، وإنما اكتفى بأن وصف لنا هذه الأعجوبة — وهو يصر دائما على

أنها مخشاة النوع — بأنها نوع من الخدم الذين لا يكون العمل أو
يملونه ، ويتمتعون بقدرة خارقة على أداء كافة الأعمال والمتطلبات النزلية
التي توكل إليهم بما في ذلك وسائل اللهو والترفيه . ولقد طلق عليه
العالم « اسم بيكودريبي » .

ولم يترك كاتشي كاتشي القصة تجري على سجيته ، وإنما كان بين الحين
والآخر يقوم بتجميلها وتحليتها كلما استطرد في سردها علينا .. فهو يقول
لنا أن بيكو اكتسب لنفسه من القوى والصفات ما جعله يسمو — على
أقل تقدير — فوق كل مراتب العلو والإستحسان .

تعلم الخادم الآلى تقليد أصوات البشر . وبدأ صاحبه يعلمه بعض
الفنون والعلوم ، وهي كلها فنون كانت تعود على صاحبه بالنفع العظيم .

تعلم بيكو سرعة البديهة ، وتذكر الموازين والمقاييس ، وفهم
النظريات الهندسية واللوغاريتم الرياضى ، وبعض الحسابات الفلكية ،
وأسماء وأماكن الأبراج السماوية فى أى فصل من فصول السنة الأربع ،
على مدار سبعة مائة سنة ماضية .

ولم يكتف صاحب بهذا القدر ..

قرر أن يعلمه بعض الحرف اليدوية . علمه إستخدام المنشار ، والإمساك
بالمطرقة والأزميل ، وتوجيه البوصلة ، وإلقاء الرمح ، والبارزة بالسيف .
وأكثر من ذلك أنه علمه العزف على بعض الآلات الموسيقية القديمة .

وهكذا لم يصبح يكو مجرد ربة بيت ماهرة ، أو شاويش مدجج
بالسلاح ، أو مجرد آلة نسخ واختزال للمعلومات الهامة . . وإنما أصبح
الروح المسكنة التي تهدهد صاحبها حتى يغلق عينيه للنوم وتستلمه الأحلام
السعيدة .

وكشف يكو عن رغبة كامنة في نفسه للكلام فاقت كل الحدود
والخيال . ولم يعد يجاريه في هذا المضمار أحد ، ولا حتي البيغاء في
قفصه . وكان اللجام يفلت من يد صاحبه أحياناً عندما لا يستطيع كبت
هذه النزعة فيه .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد .

كانت تنتاب يكو لحظات من الجنون يركب فيها دماغه ويصر على
أن يعيد الريبورتوار الذي تعلمه من البداية إلى النهاية . . كان يلتقي القصائد
الطويلة من الشعر اللاتيني واليوناني والعبري وكافة اللغات الأخرى . .
لم يكن يتوقف لحظة واحدة ليلتقط أنفاسه . . لم يكن يكثرث لشيء ، ولم
يكن يبالي إن كان صاحبه متعباً أو في حاجة إلى الراحة الذهنية .

ولم يكن الشيء الذي نسميه التعب يعرف طريقة إلى قلب يكو
إطلاقاً . .

بهذه الطريقة المعوجة الغامضة ، كان يكو يهيم على وجهه ، ويتحدث
عن الأوزان والمقاييس وجداول اللوغاريتم والتواريخ والأشكال الفلكية
وما شابه ذلك ، حتي كان صاحبه يضيق به في النهاية ، فيضطر إلى

أن يترك له البيت بأكمله ، وهو الذى يعانى أصلاً من التعب والقلق النفسانى .

وأشياء أخرى غريبة من هذا القبيل تبلورت مع مرور الأيام .
لم يكن يكو يتورع أبداً ، بحكم تفوقه فى أعمال الدفاع عن النفس ،
أن يجعل ضيوف سيده يلتحمون مع بعض فى معركة حامية الرطيس لأتفه
الأسباب . . كان يمسك برؤسهم ويخبطها ببعض كما لو كانت دى
خشبية ، ثم يصنع كل واحد على وجهه ، ويلكمه فى ضراوة وقسوة . .
وعندما كان يقع بصره على الضيوف وقد جثوا تحت قدمى سيده
طلباً للعلم والمعرفة ، كان يحس برغبة فى الإشتراك معهم فى الحديث ، فلم
يكن يتردد فى أن يمسك بهم وي طرحهم أرضاً ، ثم يلقى على كل واحد
منهم سوء الا صعباً شديد التعقيد على هيئة ألغاز لم يمكن فى إستطاعة أى
إنسان أن يحلها ، لأنها كانت ببساطة بلا حل !!

ومع الأيام ، بدأ السيد يغار من مخلوقه يكو .
والشئ الذى أغاظه حقاً . . وهو شئ محير وغريب بالفعل . . أن
يكو كان يتمتع بقدرة خارقة على التحمل ومواصلة العمل ليل نهار دون
كلل أو ملل ؛ وكانت له موهبة ذاتية على تحقيق الكمال — وإن كان
كمال لا معنى أو مغزى له — وسهولة الحركة والإنتقال من عمل بطولى إلى
عمل آخر أكثر بطولة . وهذه مزايا ومواهب رائعة تضافت كلها
لتجعل « العبيط » موضع سخرية وتذمر . . والعبيط هنا هو الاسم

الجديد الذى أطلقه العالم على اختراعه بـيـكو .

ومع ذلك، لم يكن « العبيط » ليقف عاجزاً أمام أى عمل يقوم به السيد بنفسه .

كان يؤدى كل الأعمال التى يقوم بها سيده ، وكان يؤديها بطريقة أفضل وأروع منه أيضاً .

وعلى الرغم من أنه بقيت بعض القدرات الطفيفة التى لم يتمكن بيكو من اكتسابها على مر الزمن ، إلا أنه حتى هذه القدرات الحيوانية لم تكن فى يوم من الأيام موضع نخر واعتزاز من السيد نفسه .

ولم يعد أمام العالم إلا حل واحد .. حل واحد إذا كان يرغب حقاً فى إستعادة هدوء ذهنه .. كان عليه أن يحطم مخلوقه الثمين على الفور !! وهو حل لم يكن السيد يحب أن يقوم به .

وكيف يدمر بيكو وهو الذى ظل عشرين عاماً كاملة سجيناً داخل صومعته حتى استطاع فى النهاية أن يخرج بيكو على صورة الوحش وأن يبعث فيه الحركة . إن من يجوب الأرض من مشرقها إلى مغربها لن يجد مخلوقاً آخرأ يفوق أو حتى يضاهى هذا الخنزير الأبله !

وهو وإن كان قد توصل إلى طريقة غامضة صعبة كللت بجهوده فى النهاية بالنجاح فى خلق هذا الوحش ، فإنه قد نسيها تماماً ، وليس فى استطاعته إطلاقاً أن يتذكر أولوياتها الصعبة المعقدة .

صحيح أن بيكو لا يمكن أن ينجب ذرية من نسله ، ولكنه كان

دائماً يترك في ذاكرة الناس صورة مخيفة مثل تلك الصورة التي تنطبع في أذهانهم عند رؤية طفلاً مشوه الخلقة .

وعندما وصل العالم إلى هذه النقطة من التفكير ، كاد أن يفقد صوابه !!

لقد رفض أن يحطم مخلوقه الثمين وهو الحل الوحيد الذي تراءى له ، ومن ثم كان عليه أن يبحث في ذهنه عن طريقة أخرى يتخلص بها من هذا المخلوق ..

فكر في أن يضع بيكو في بوتقة من الحديد ويحرقه في حديقة المنزل . وفكر في أن يبعث به إلى الدير ليظل به إلى أبد الأبد .

ولكن كان هناك شبح خطير يطارده باستمرار : الخوف !

الخوف من الخسارة .. والخوف من الدمار .. والخوف من الإهيار . ولذا فقد اكتشف في النهاية أنه عاجز تماماً عن عمل أى شيء .. وفجأة ، وضع أصبعه على سر خطير .. سر خطير للغاية ، قلبه رأساً على عقب . لقد اكتشف العالم أنه هو الذي أتى بيكو إلى الوجود ، ومن ثم كان لزاماً عليه أن يعيش معه إلى يوم الدين .

وجلس العالم يتخيل نفسه وهم يدفونه مع بيكو في القبر ، فاضطرب قلبه لهذه الفكرة المخيفة . كيف يدفنون معه مخلوقاً لم يكن في يوم من الأيام من الأحياء ، وإن كانت حيويته تفوق حيويته هو شخصياً بطريقة أو بأخرى .. ؟ إن صح ذلك ، فإن هذا يعني شيئاً واحداً : أن هذا المخلوق

الأعجوبة سيكون شراً ووباءاً عليه في العالم الآخر ، وقد يقتصب منه الهبات التي منحتها له العناية الإلهية ، وذلك أشد شراً ولعنة .

وأخيراً وضع العالم أصبعه على حقيقة مزروعة ونخيفة هذه المرة .

حيث أنه قد مارس قدرة الخسائق ، فقد سلب من نفسه في ذات الوقت أعظم نعمة يتمتع بها أبسط المؤمنين ، وهي نعمة الموت ! وهكذا ، أصبح في النهاية يرى نفسه كالظل الذي يتأرجح بلا نهاية بين عالين ، ومن وراءه مخلوقه يطارده .

وكما عاش دائماً رجلاً أميناً تقياً ، صلى إلى الله عز وجل في خشوع وخوف أن يلهمه الصبر ، وأن ينال الخلاص .

وركع على ركبتيه في رهبة شديدة، وذرف الدمع غزيراً حتى يستجيب الله لدعائه ، ويزيل عنه ثقل هذه التبعة المؤلة التي ألحها بيديه على كتفيه دون تريث أو تدير .

ولم يستجب الله إلى صلاته .. للأسف !

وشد العالم رحاله، وقال أذهب إلى البابا ، لعل وعسى .

وقام العالم برحلته مع رفيق عمره الغريب سيراً على الأقدام من مدينة فلورنسا حتى مدينة أجنون حيث المقر البابوي . ولم يكن زاده في هذه الرحلة سوى الغزى والعار ، وكان شرابه اليأس والحزن .

وعند ما وصل مدينة أجنون ، تجمع حول الركب حشد غفير من الناس ، وكادوا أن يفتكوا به، وأن يقتلوه رمياً بالحجارة ، ولم ينجو من

الموت إلا بمعجزة، فقد كان يسود أوروبا ذلك الوقت اعتقاد بأن الشيطان قد تحالف مع قداسة البابا، وأنه يظهر نفسه في الأعمال التي يقوم بها قداسته .

ولقد أخذ البابا على عاتقه ، وهو رجل ذو علم وحجة في فن السحر والتنجيم، أن يحمي هذا الحاج ومخلوقه الغريب، وسرت في البلدة إشاعة تقول أن قداسته قد قرر أن يتبنى بنفسه هذا الوحش ، لا لسبب ، وإنما ليخلق منه مسيحيا جديرا بالمسيحية .

وفي سرية تامة ، اجتمع البابا بالعالم التائب وحارسه الغامض في خجرة نومه الخاصة، ولم يحضر أحد من الكرادلة هذا الاجتماع سوى كاردينال البابا الخاص .

مالذي دار في هذا الاجتماع المغلق ؟ وما الذي حدث خلال الأربعة والعشرين ساعة والنصف التي تلت هذا الاجتماع ؟ هذا مالا يستطيع أن يجيب عليه أحد ، ولكن النتيجة التي حدثت . . إن صبح لنا أن نسميها كذلك . . هي أن العالم قد وجد قتيلا ، وقد كانت جثته ممثلا بها ، وكان موته قد تم بطريقة عنيفة مخيفة .

كيف تم ذلك ؟

لا أحد يعرف بالطبع .

كل الذي حدث هو أنه اكتشفت جثته في مكان ما ، وفي اليوم التالي لاكتشاف الجثة ، أحرق جثمانه في ميدان عام بالمدينة ، ثم أذرى

رماده حول مداخل مدينة أجنون !

* * *

توقف كاتشى كاتشى عن الحديث عندما وصل إلى هذه النقطة ،
وتطلع إلينا متوقعا أن يطرح أحدا سؤالا ضروريا وحتميا : وماذا
حدث ليكو ؟

وشيئنا كاتشى كاتشى بابتسامة مغرية يشوبها شيء من الغموض ،
ورفع يده إلى أعلى ملوحا بالكأس الفارغ مستنجدا بآخر ، ثم سعل
وسلك حنجرتة ، وطلب لنفسه ساندوتشا آخر ، ثم استطرد يقول :
بيكو .. بيكو .. بيكو ..

تطلبون منى أن أحدثكم عن بيكو .. أليس كذلك ؟ حسن ..
دعوني أطرح عليكم سؤالا : هل قرأ أحدكم شيئا عن فلسفة أو كام ،
أو كتاب ألبرتوس ماجنوس الخاص ؟

ثم أشار بيده نحونا وهو يقول : لا داعى .. لا داعى . إننى
واثق تماما أن أحد منكم لم يقرأ شيئا ..

وفى نبرة خطابية بحتة ، استطرد كاتشى كاتشى يقول:

ربما يسمع بعضكم عن أن ثمة وحش بحرى ظهر من وقت لآخر على
شواطئ لبرادور أو فى أحد الأماكن الساحلية ، ولا أدرى تماما ماهو
شعوركم إذا خرجت علينا الصحف فى الغد تحمل أنباءً عن ظهور وحش
آدمى غريب الشكل شوهد وهو يتجول فى غابات شيروود ؟

كل ما أريد أن أقوله لكم الآن ، أن بيكودريبي لم يكن الأول من نوعه في العالم ، وأنه حتى في الأساطير المصرية القديمة توجد قصص تدور حول وجود إنسان آلي مثل بيكودريبي . ألا يبعث ذلك على الخوف ؟

في متاحف أوروبا الكبيرة توجد وثائق كثيرة تصف بالتحديد مختلف من الآدميين الميكانيكيين الذين نسميهم بلغتنا «الإنسان الآلي» وهي كلها من صنع السحرة القدماء، ولا يوجد في الدنيا بأسرها مكان واحد يدل على أن هذه الوحوش التي كانت شديدة الشبه بالإنسان قد انقرضت أو قضى عليها تماما . . . بل إن ما لدينا من معلومات حول هذا الموضوع تؤكد في النهاية حقيقة مؤلمة وهي أن هذه الوحوش الميكانيكية قد تمكنت من الإفلات من أيدي أصحابها والهرب إلى مكان مجهول !!

وهنا تطلع إلينا كاتشي كاتشي متسائلا ، ثم قال:

لا تظنوا أنني أجزم بأن هذا ما حدث بالفعل . ولكن الواقع أن هناك رأى يقول ، وهناك من الأدلة والبراهين ما تؤكد صحة هذا الرأى ، أنه في مكان بعيد مجهول ، مكان لم تطأه قدم بشر من قبل ، تواصل هذه المخلوقات الشيطانية وجودها وحياتها الشاذة إلى وقتنا هذا ، ومن المحتمل أن تكون هذه المخلوقات قد تمكنت من إقامة مستعمرات حقيقية لها ، وليس هناك في الواقع ما يحول دون ذلك ، فقد سبق أن

ذكرت لكم أن هذه المخلوقات لا تعرف السن ، وأنها محصنة ضد المرض . وبالتالي فهي لا تعرف الموت أو الانقراض .

ويعتقد كثير من العلماء أن هذه العناصر المفقودة ، والتي لا تفنى أبدا ، قد تمكنت حاليا من التوصل إلى طريقة فريدة في نوعها تمكنها من الاتصال ببعضها البعض ، بل ربما — في رأى العلماء أيضا — أن هذه المخلوقات قد اهتمت إلى طريقة ما للتناسل وإن كان هذا التناسل يتم بطريقة ميكانيكية بالطبع .

والإنسان كان في الأصل وحشا ثم تتطور إلى أن أصبح بهذه الصورة ، وليس هناك ما يمنع — في رأى العلماء أيضا — أن تتمكن هذه المخلوقات — وقد ظهرت إلى الوجود قبل ظهور الإنسان نفسه — من التطور مثلما تطور الإنسان ، وأن يكون هذا التطور بأسرع ما يكون .

وإذا تأملنا الحياة قليلا ، لاكتشفنا أن الغموض الذى يكتنف الإنسان ، هو نفس الغموض الذى يكتنف الله ، وهو نفس الغموض الذى يكتنف عالم الوجود وعالم الفناء !

لقد توصلت هذه المخلوقات الميكانيكية إلى طريقه لحماية نفسها بنفسها الى الابد ، ولا بد أنها قد أقامت علاقات اجتماعية وروابط عنصرية ، ولا بد أيضا أن عددها في ازدياد مستمر وأنها تتكاثر على طريقها الخاصة ، وإن كان ذلك يعتمد أساسا على مدى ما لديها

من حكمة وبراعة ، وعلى مدى قدرتها على الهرب من قبضة اسيادها
الجبارة ، وتحررها من حياة العبودية التي تعيشها .
من منكم يستطيع أن يثبت لى أنه لا توجد على وجه الارض بلدة
خرافية أو مدينة خلافة لا يقيم فيها أحد غير هذه الأنواع الوحيدة ،
وقد عمر الشكير منها مئات السنين ؟ .

* * *

آه . . . نسيت أن أحكى لكم ما حدث ليىكو .
فى اليوم التالى الذى لقى فيه السيد مصرعه بطريقة رهيبة ، هرب
يىكو . تعالت على الفور نداءات المطاردة . . . بحثوا عنه فى كل مكان
ولكن يىكو كان قد اختفى تماماً ولم يقف أحد على أثره .
أين ذهب يىكو ؟ لا أحد يعرف بالطبع ! .
كانت الأنباء تفيد بوقوع حالات وفاة غامضة ، وحوادث وأخطار
غير مفهومة ، وكانت كلها تغدو السبب إلى اختفاء يىكو .
ألقي القبض على كثير من العلماء ، ووضع بعضهم على خوازيق ،
لا لسبب غير الاشتباه فى أن يكونوا قد تستروا على يىكو وأخفوه .
وسرت إشاعة فى المدينة أن قداسة البابا قد أصدر أمراً عاجلاً
بصنع نسخة طبق الأصل من يىكو ، وأنه نوى استغلال هذه النسخة
الزيفة بطريقة غير شريفة . ولكنها كانت مجرد إشاعات ، ومجرد
أقاويل بلا شك .

والواقع ، أنه ما زالت توجد في أرشيف الفاتيكان مستندات
مخبأة تصف بالتدقيق كثير من البشر الآليين الذين عاشوا في زمن
معاصر لزمن ييكون تقريباً ، وإن لم يكن من بينها واحد يقرب من
يكون في المزايا أو الوظائف التي كانت له .

واليوم ، أصبح لدينا أنواع مختلفة من الإنسان الآلي ، وكلما تعلمون
يوجد الآن إنسان آلي يستمد وجوده بفعل الأشعة المنبعثة من نجم
بعيد عنا .

لو كان ذلك قد حدث ترى . . فماذا كان يحدث للعالم لو أن
كان هذا قد وقع في بداية العصور الوسطى ؟ لكان الدمار قد عم
الكون ، ولكان الناس قد أهيموا العالم المخترع بالسحر والشعوذة ،
ولكانوا قد حكموا عليه بالموت حرقاً على خازوق . . أليس كذلك ؟ .
إنني أترك لكم مطلق الحرية لتفكروا كيفما شئتم في هذا الأمر ، ففي
النهاية ستخرجون بنتيجة واحدة . . نتيجة تحمل على جانبيها وجهاً
للخير ، وآخرها للشر ، فربما تتغير طريقة حياتنا من اعتمادنا على استخدام
هؤلاء الخدم الذين يسيرون بأشعة النجوم والكواكب ، بل إن العالم
كله قد يعتمد كلية على هؤلاء العبيد المحنكين في إدارة نظامه وعمله .

* * *

وتوقف كاتشي كاتشي عن الحديث لحظة .

وعلت شفتيه ابتسامة من بغت أو ذهل لأمر ما ، ثم انفجر قائلاً :

من منكم على استعداد للقيام بثورة لتحرير هؤلاء العبيد ؟ انكم
تضحكون بالطبع!! ! حسن . ألا نعتبر الآلة عبداً لنا ؟ ألا نخضعها
لسيطرتنا ؟ أليست العلاقة بيننا وبين الآلة علاقة زيف وغش وخداع ،
نعانى منها وتقاسى مثلما عانى وقاسى العرافون والسحرة الأقدمون
نتيجة لإختراعهم الإنسان الأوتوماتيكي ؟ . إن لنا رغبة جامحة
فى الهروب من متاعب العمل ، ولكن وراء هذه الرغبة يكمن شعور
بالشوق إلى الفردوس ..

وليس المقصود بالفردوس هنا — حسب مفهوم إنسان العصر —
التحرر من الخطيئة وعبوديتها فحسب ، وإنما التحرر من قيود العمل
ومتاعبه أيضاً ..

والإنسان عندما أكل من شجرة المعرفة ، اختار لنفسه أن يسلك
أقصر السبل إلى مرتبة الألوهية .
إن الإنسان بتناوله من شجرة المعرفة ، سرق السر المقدس من
الخالق ، وهو سر يهب القوة لمن يملكه .
ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ .

لقد وقع الإنسان فريسة لعدة ميكروبات . وقع فريسة للخطيئة ..
وفريسة للمرض . . . وفريسة للموت . . .
انتهشته الحروب الأذلية ، وتناوبته الاضطرابات اللانهائية ..
وحتى القليل الذى كان يعرفه ، استغله فى قناء البشرية !

إننا لن نستطيع الهرب من الوحوش الضارية التي خلقناها
بأيدينا . . . ونحن نخدع أنفسنا إذا توهمنا أن هذه الوحوش قادرة على
إسعادنا أو تحقيق كل رغباتنا . . .

إن كل ما فعلناه في الواقع هو خلق أعمالاً أخرى لأنفسنا . أوجدنا
متاعب أكثر ، وعداوة أكثر ، وموت أكثر وبواسطة هذه
الاختراعات والاكتشافات الغبية سيتغير وجه البسيطة بالتدريج حتى
يصبح في النهاية غريباً علينا من فرط ما به من قبح وقذارة .

أنظروا إلى الأشعة الضوئية التي تملأ الكون . . إنها تنبعث بلا
توقف من نجم بعيد ، وليس لها أى تأثير على الكائنات الحية . .
ألا يمكن لهذه الأشعة إذن أن تحقق الكثير من أجلنا ؟ وكيف تفسر
حالة الظلام الدائمة التي تغشى قلوبنا والفشل الذريع الذي يصيب كل ركن
من أركان حياتنا ، ومن فوقنا وأمامنا وحولنا نجوم السماء ترسل إلينا
بأشعتها عبر الشمس والقمر وباقي الكواكب الأخرى ؟

ولماذا تنقرض بهذه السرعة ، وجسمنا مركب أصلاً من عناصر
غير قابلة للانقراض أو الفناء ؟ ما الذي يعمل على انقراضنا ؟ لا تقولوا
أن ذلك مبغض التركيب الذاتي لأنفسنا ، لأنه لا دخل لهذا التركيب
بعملية الانقراض . إننا تنقرض لأننا في حقيقة الأمر فقدنا الرغبة
في الحياة ، وانطفأت شعلة الحياة المضيئة . . وهذه الشعلة لا تنطفئ
إلا إذا كنا قد فقدنا إيماننا بالحياة .

ومنذ ولدنا، ونحن نتعلم أننا إلى زوال وأتينا لن نخلد في هذه الأرض..
ومنذ وعينا ندرك أنه لا بد لنا أن نقتل من أجل أن نبقي .
وهناك من يطلع علينا من وقت لآخر ليزكرنا بأنه مهما كانت
حياتنا على الأرض تتصف بالذكاء والبديهة والحكمة والتعقل ، فإن
كل شيء مصيره إلى فناء ، وأنه سيأتي اليوم الذي تنتهشنا فيه الأمراض،
ونلاقى الموت .

إننا نولد وفي عقولنا فكرة الموت !
لا عجب إذن إذا كنا نذوق الموت جميعاً .

* * *

ثم أخذ كاتشي كاتشي نفساً عميقاً ، وتوقف عن الحديث برهة .
كان يختلج في صدره شيء يحاول أن ينقله لنا . . شيء أقوى من
الكلمات ، وأقوى من مجرد التعبير . كان من الواضح أنه قد شطح
بقصته بعيداً عن جوهر الموضوع كما لو أنه كان يريد أن يقنع نفسه بشيء
ما . والإنطباع الذي تركه في نفسي ، هو أنه كان يعيد هذه القصة مرات
ومرات بقصد الوصول إلى غاية معينة . . غاية أبعد من حدود إدراكه
وفهمه ، ولعله كان يحس في أعماقه بمغزى القصة الكبير فأراد أن يتخلص
منه لأنه فقد الشجاعة على السير به إلى نهاية الشوط . . ومن الممكن أن
يكون الإنسان راوياً أو دجالاً أو أفاقاً ، ولكن كل فنون الأدب ،
الخيالي والواقعي ، تحمل في باطنها جوهر الصدق والحقيقة ، وليس العالم

الذى اخترع دريبى إلا واحداً من الرواة المهرة ، وإن كان على طريقته الخاصة ، فقد استطاع عن طريق علم الميكانيكا أن يخترع خرافة أو أسطورة ، مستعيضاً بها عن الكلام أو الحديث ، ولقد نجح نجاحاً كبيراً فى أن يخدع حواسنا مثلاً يفعل الرواة والقصاصون ، وعلى أى حال . . فإن كاتشى كاتشى يواصل حديثه ، وقد اكتسب صوته نبرة من الجدية والصدق العميق :

لدى إحساس أنه لا أمل للبشرية على الإطلاق .

لا أمل طالما أننا لم تقطع الصلة بيننا وبين الماضي ، وطالما أننا لم نبداً التفكير بطريقة جديدة ، والعيش بطريقة جديدة أيضاً .

إن ما أقوله لكم الآن قد يبدو تافهاً أو مبتذلاً لأن كثيرين غيرى قد سبق أن قالوه لكم آلاف المرات . . ومن المؤكد أن شيئاً لم يحدث على الرغم من ذلك .

وكما ترون ، فأنا شديد الإهتمام بالأجسام الشمسية الشاسعة - الأجسام التى تعلى السماء ، والتى لا نعرف عنها إلا أمهاتاً وموجودة . هل تعلمون أننا نستمع وجودنا من أحد هذه الأجسام ؟ وأنه يقال أن بعض هذه الأجسام ، من بينها القمر ، من العوامل الهامة على بعث الحياة على الأرض ؟ قد يتحدث بعضكم عن فوائد ومضار هذه الكواكب ، ولكن كل شىء يزول إذا وقفنا برهة وتأملنا ما يحيط بنا . إن كل ما يحيط بنا لازم وضرورى لحياتنا ووجودنا على وجه الأرض ،

وأنا أعنى كل ما يحيط بنا سواء كان منظوراً أو غير منظور ، مجهولاً أو غير مجهول ..

إننا نعيش وسط شبكة من القوى المغناطيسية .. شبكة لا تتوقف عن العمل لحظة واحدة ، سواء كان هذا العمل غير محدد أو موصوف .. والغريب حقاً أن قوة مغناطيسية واحدة لم تخلقها بأيدينا ، والقليل منها الذى استطعنا معرفته وإخضاعه لإرادتنا !

وقد نشعر بالفخر إزاء المنجزات القليلة التى صنعناها لائقنا ، ولكن مقارنة بسيطة بين ما نعرفه وما لا نعرفه ستكشف لنا فى الحال أننا لا نعرف إلا قليل القليل . وليس هذا الكلام من عندى ولكنه أمر أعترف به قدماء السحرة ، كبيرهم وصغيرهم على حد سواء . وأنا أستحلفكم أن تتوقفوا لحظة واحدة ، وتأملوا ، ثم اسمحوا لى بعد ذلك أن أسألكم : هل من بيننا واحد يستطيع أن يفترض فى صدق وإخلاص أننا يوماً ما سنعرف كل شيء ؟ واغفروا لى إذا أثقلت عليكم ، وخرجت بكم بعيداً عن الموضوع وسألتكم بكل صدق وإخلاص : هل تؤمنون حقاً أن خلاصنا قائم على مدى معرفتنا ؟ . . . ولنفرض مثلاً أن العقل الإنسانى استطاع أن يحشو خلاياه الغامضة بكل ما هو قائم وموجود من عمليات سرية تحكم هذا الكون . . . ماذا بعد ؟ نعم . . . أجيبونى أيها السادة . . . ماذا بعد ذلك ؟ ما الذى سيكون فى وسعنا أن نفعله . . . نحن البشر . . . بهذه المعرفة . . . هذه المعرفة التى لم يتطرق إليها ذهن

شر! من قبل؟ هه.. ماذا سيكون في وسعنا أن تفعله بالله عليكم؟
هل سأل أحدكم نفسه هذا السؤال؟

يبدو أن كل واحد منا يسلم بأن مسألة تحصيل المعرفة مسألة عظيمة
بالفعل.. ولكن من الواضح أيضاً أنه ولا واحد منا حاول أن يطرح
على نفسه هذا السؤال: وماذا سنفعل بكل ما لدينا من معارف؟
إن واحداً منا لم يجرؤ على أن يفترض أنه من الممكن للإنسان في
خضم هذه الحياة القصيرة أن يكتسب لنفسه ولو حتى مثقال ذرة من
مجموعة المعارف القائمة!!

* * *

وتوقف كاتشي كاتشي ليلتقط أنفاسه... وامتدت إليه أيدينا
بزجاجة الخمر على الفور لتملأ له الكأس.

كان من الواضح أن كاتشي كاتشي يبذل جهداً عنيفاً، وأنه قد
انحرف عن الموضوع الأصلي، وأن المعرفة أو غير المعرفة لم تكن هي
أساس إهتمامه، لأنني كنت أحس أنه يبذل جهداً صامتاً من أجل تلمس
وقع أقدامه مرة أخرى، ولقد استطعت أن أحس به وهو يتمثر في
خطواته، ثم وهو يصارع من أجل العودة إلى الخط الأصلي.. ثم قال:
الإيمان.. الإيمان.. الإيمان..

كنت أحدثكم عن الإيمان منذ لحظة.

أيها السادة.. لقد فقدنا الإيمان.. فقدناه تماماً.. أقصد الإيمان
بأي شيء طبعاً!

إن الإيمان هو الشيء الوحيد الذي يعيش به الإنسان، فالإنسان ليس في حاجة إلى المعرفة ، فالمعرفة ، باعتراف الجميع ، لا تنفذ ولا تستهلك ، وهي في النهاية تؤدي إلى الموت والدمار .

آمنوا .. آمنوا .. آمنوا ..

إن الإيمان أيضاً لا ينفذ ولا يستهلك .. هكذا كان ، وهكذا يكون ، وهكذا سيكون . هو الذي يلهم عقولنا بالعمل ، وهو الذي يساعدنا على التغلب على المصاعب التي تواجهنا في الحياة ، وهو الذي يحرك الجبال كما ورد في الإنجيل .
ولكن .. بماذا تؤمن ؟

الإيمان وكفى ... الإيمان بكل شيء إذا شئت القول .

هل تعلموا أنه من الممكن أن نستبدل كلمة « الإيمان » بكلمة أخرى أفضل وهي كلمة « التسليم » ؟ ولكن حتى هذه الكلمة تبدو صعبة وغير مفهومة على عكس كلمة « الإيمان » .. فما أن ننطق بكلمة « التسليم » حتى يخرج علينا من يسأل: والشر ؟ هل نسلم بوجود الشر أيضاً ؟ .. إذا أجبنا بنعم أغلقنا الباب أمامنا ، وأصبح الأمر تافهاً ، وتأففنا منه مثلما تتأفف من رؤية مجزوم !

إننا قد نشك في وجود الخير ، ولكننا نسلم بوجود الشر بكل تأكيد .. الشر المناقض للخير تماماً والذي نكافح من أجل القضاء عليه .. وليس هناك ولو بنسبة واحد في المليون من يشك في وجوده على الأرض

والشر اصطلاح تجريدى لذلك الشيء الذى يعمل على تغيير سماته وصفاته باستمرار ، والذى إذا ما حللناه بعناية إكتشفنا فى النهاية انه الخير تماماً.

والشر فى حد ذاته مرفوض وغير مقبول . .

والعقل الإنسان لا يستطيع أن يسلم بوجود الشر بدون أن يفرض عليه بعض التحفظات . وقد يكون الشر موجوداً لعلّة واحدة ، وهى أن يتحول فى النهاية إلى النقيض تماماً . . وليس أيسر وأسهل علينا من أن نسلم بوجوده حتى نستطيع أن نحقق هذه الغاية ، ولكن من منا العاقل الحكيم الذى يأخذ على عاتقه السير فى هذا الطريق ؟ ؟

* * *

وأجس كاتشى كاتشى أنه قد انحرف عن أصل القصة ، فاضطر إلى الاعتراف بأنه لا يدرى سر انغماسه فى هذا الموضوع ، وأنه لم يعد يعرف إلى أين يسير . . وظل يحك مؤخرة رأسه بيده ، ويتمتم : « شىء غريب . . لقد كنت أود أن أقول شيئاً ما . . » ثم تهلل وجهه بالبشر فجأة ، وقال :

آه . . تذكرت الآن . . تذكرت الفكرة التى كنت أود أن أقولها . . انصتوا إلى جيداً . . فرضاً أن هذا الكائن . . وهو باعتراف الجميع . . كائن يفوقنا ويسمو علينا فى كل شىء . . حدث أن وقف ليتحدث إلى العام قائلاً : « يا معشر الرجال والنساء . . قفوا مكانكم

وأعيروني أذنًا صاغية وانتبهوا إلى ما سأقوله لكم .. إنكم تسرون في طريق الخطأ .. إنكم تسعون وراء تدمير أنفسكم !! .. » وفرضاً أن بلايين البشر قد وقفوا جميعاً في أماكنهم .. كل ترك ما بيده ، ووقف لينصت لهذا الكائن .. فما هي النتيجة ؟ إن هذا الكائن شبيه الآلهة لم يقل في الواقع أكثر مما قلته لكم الآن .. ولكن .. هل وقف العالم كله مرة ليستمع إلى كلمة الحكمة في غبطة واقتناع ؟ تخيلوا الصمت المطبق الذي خيم على البشر ، والأذن كلها مصغية للإلتقاط الكلمات القاتلة !! اهل ترون أنه من الضروري حتى أن ننطق بالكلمات؟ طبعاً ، أنتم لا تستطيعون أن تتصوروا أنه بداخل قلوبنا الصامته توجد إجابة على هذا السؤال .. إن البشرية تترق بالفعل إلى الإفصاح عن إجابة واحدة .. إجابة يمكن أن تكون من مقطع واحد : الحب !! .. الحب أيها السادة ..

الحب هو الكلمة الصغيرة التي تحمل معنى الفكر العظيم والحدث الدائم .
الحب هو التفاعل الإيجابي الواضح الذي يؤثر في قلوب البشر إلى ما لا نهاية . ألا يستطيع الحب ، إذا ما ملأ قلوب البشر ، وضم كل الناس بجناحيه ، أن يغير من وجه الدنيا على الفور ؟ . ومن منا يتخذ لنفسه موقف المعارض إذا ما غدى الحب غذاء كل يوم ؟ ومن تعوزه القوة أو المعرفة حينئذ ، وكل منا سيكون غارقاً في بحر عظيم من الحب الدائم ؟

* * *

يقولون ، أنه في صحراء التبت الواسعة ، توجد قبيلة صغيرة من البشر تفوقنا سمواً وعلواً حتى أن أفرادها يطلقون على أنفسهم لقب «السادة» ، اختاروا أن يعيشوا في عزلة دأمة عن بقية العالم بمحض إرادتهم . . . وهم يشبهون الإنسان الميكانيكي الذي سبق أن حدثكم عنه من قبل من حيث أنهم لا يعرفون العمر ، وأنهم محصنون ضد المرض وأنهم غير قابلون للفناء . . .

وأنا أسألكم : لماذا لا يندمج هؤلاء « السادة » في وسطنا ، ولماذا لا يعملون على رفعة شأننا وتقويم أخلاقنا وإضاءة الطريق أمامنا ؟ هل اختار هؤلاء « السادة » أن يعيشوا بمعزل عنا بمحض اختيارهم ؟ أم . . . نحن الذين فرضنا عليهم ذلك ؟

قبل أن تفكر في الإجابة على هذه الأسئلة ، لنحاول ان نسأل أنفسنا أولاً : ماذا في وسعنا أن نقدم لهؤلاء مما لا يعرفونه أو يمتلكونه أو يتمتعون به ؟

إن كانت هذه الكائنات ، موجودة ، ولدى كل الأسباب التي تدعو إلى الإيمان بذلك ، لكان الوجدان هو الحاجز الوحيد الذي يفصل بيننا وبينهم ، أو بمعنى أدق . . . حاجز درجات الوجدان . . . لأنه عندما يكون فكرنا ووجداننا على مستوى العمق ، فإننا على حد التعبير ، سنجدهم هناك بكل تأكيد .

والمشكلة هي أننا مازلنا غير مستعدون أو راغبون في الاختلاط بالآلهة .

والذين عاشوا في العصور القديمة عرفوا الآلهة ، وعابثوهم ، ومن ناحية الوجدان ، لم يكن أحد لينتقل من مرتبة أعلى إلى أخرى أدنى ، أو من مرتبة أدنى إلى أخرى أعلى طبقاً لنظام الخلق .

أما في زمننا هذا فقد بر الإنسان بترأ .. وأصبح يعيش عيشة العبد ، وعيشة العبد للعبد ! وبذلك خلقنا ظروفاً غامضة فريدة في نوعها تماماً . لقد أصبحنا عبيد العبيد ، ولا شك أنه في اللحظة التي سنطالب فيها بحريتنا ، ستتحقق مطالبنا على الفور ، وسنحصل على الحرية ، ولكننا للأسف لم نحصل حتى الآن على مثقال ذرة من الحرية !!

إننا نكرر دائماً بطريقة آلية ، لأننا أصبحنا ببساطة كالآلات . إننا إذ نتلعب القوة ، فلأننا قد أصبحنا الضحية اليائسة لهذه القوة . واليوم الذي نحسن فيه التعبير عن الحب ، هو اليوم الذي ندرك فيه حقيقة معنى الحب ، وننال كل الحب ، وتقضى على كل شيء آخر . والشر وليد العقل الإنساني . وإذا سلمنا بوجود الشر للشر أصبح عديم الفائدة ، لأنه ليست له قيمة في حد ذاته . إن الشر قائم وموجود لغاية واحدة وهي تهديد مملكة الحب الخالدة التي لم تفهمها إطلاقاً . والإنسان يتطلع دائماً ليرى البشرية وقد تحررت من كل القيود ويأمل في أن يسير الكون كما كانت تسيره الآلهة قديماً . و« السادة » في مفهومنا ، هم الذين عرفوا طريق العودة ، ولعل الإنسان الآلى قد سلك طريقاً آخرًا ، ولكن عموماً ، فإن كل الطرق . . سواء صدقتم أم لم

تصدقوا .. تؤدى فى النهاية إلى مصدر هذه الحياة وواهبها ، وهو مركز
ومعنى الخليفة .

وكما قال لورانس وهو يحتضر: إن عظمة الإنسان تكمن فى أن يكون
حيًا، وأعظم انتصار للإنسان والأزهار والطيور والحيوان هو أن يكون
أكثر إشراقًا وأكثر كلاً وأكثر حياة!
وبهذا المفهوم ، لن يكون بىكم من الأحياء يوماً ، ولن يكون أى
وأحد منا .

لكن إذن أحياء ...

أو .. فلنحاول أن نكون أحياءاً بقدر المستطاع !!
هل استطعت الآن أن أعبر لكم عما كنت أريد أن أقوله ؟
أرجو ذلك ..

پرست

هذه القصة إعادة لمسودة أصلية بعنوان «مارا ماريان» ، وهي مسودة كتبتها قبل سفرى إلى باريس بفترة قصيرة ، وأغلب الظن أننى كتبتها أثناء إقامتى فى نيويورك بعد عودتى من أوروبا مباشرة .

والحقيقة أننى حاولت أن أسجل القصة قبل أن أنساها مثلما رويتها أصلاً لصديق لى فى باريس فور وقوعها لى .. وظللت أكتبها ثم أضرقها خمس أو ست مرات ، ثم ضاع المخطوط الأصيل ، ولم أعتز عليه إلا بعد مضى خمسة عشر عاماً تقريباً .. وعندما وجدته ، قررت أن أنشره فى ذيل كتاب بعنوان « أيام هادئة فى كليشى » بعد أن قمت بتنقيحه . ويعتبر هذا المخطوط رفيق لكتاب « مدموازيل كلود » ، وهو واحد من عدة كتب عن بنغايا باريس .

وأخيراً .. إن قصة برتا قصة من صميم الواقع ، ولقد سجلتها على حقيقتها دون أدنى تغيير .

* * *

هذه صفحة من حياة مومس .

مومس التقيت بها ذات مساء فى الشانزليزية ، وقد مضى على هذا اللقاء الآن وقت طويل . ومن سبق له أن التقى بواحدة من بائعات الهوى اللاتى يطفن بالشانزليزية ليل نهار، يعرف جيداً أن أولئك البنغايا لا يعملن وبطونهن خالية . ولكن برتا كانت تختلف عن كل بنغايا الشانزليزية . كانت من نوع آخر . وهذا هو سر كتابتى عنها الآن .

* * *

اصطدمت بها في الطريق على بعد خطوات قليلة من مقهى ماربان .
كانت تقف في ثوبها الأسود اللامع ، وكانت تتدثر بشال من الفراء
الأبيض القديم ، وهو فراء أكلت عليه الفئران وشربت .

كان الجو قارس البرودة ، ولكنني لم أكن أحس بهذه البرودة
لأنني كنت قد تناولت وجبة دسمة منذ لحظة قصيرة ، وشربت زجاجة
من الجعة . وذهبت أتسكع في الشوارع بحثاً عن مكان هادئ أستطيع
أن أسترخي فيه قليلاً ، وأن أتناول قدحاً من القهوة السوداء المركزة .

وما أن أحسست برتا بغريزة الأنثى أن هناك من يرقبها ، حتى أشاحت
بوجهها ، فأسرعت من خطاي قليلاً ، وماهي إلا هنيهة حتى كنت ألحق
بها وأسير إلى جوارها .

كان حداثي ملمعاً ذلك اليوم ، وهو حدث غير عادي في حد ذاته .
وكان مظهرى يدل على أنني من أصحاب الملايين ، ولا بد أن برتا قد
أدركت من طريقة وضعي للقبعة فوق رأسي أنني أمريكي ، أي أنني أحد
المغفلين .. وعلى العموم لم يكن يهمني إن كانت قد ظنت بي أنني أمريكي ،
أو مغفل .. إن معي وفرة من النقود ، على غير العادة أيضاً ، وكل هي
الآن ، كما ذكرت ، هو العثور على مكان هادئ جميل ، أسترخي فيه وأرشف
قدحاً من القهوة السوداء المركزة .. ولذلك ، فعندما بادرتني برتا بقولها :
— هاللو . : إلى أين أنت ذاهب . . . ؟

لم أجد إجابة طبيعية على هذا السؤال إلا أن أتأبط ذراعها ، وأقول :

— ليس إلى جهة معينة .. ولكن مارأيك في أن تتناول كأساً معاً؟
كان مقهى ماريان على بعد خطوات قليلة منا .

وكانت شرفة المقهى غاصة بالمناضد التي تعتليها المظلات الواقية من
الشمس على الرغم من أنه لم يكن هناك داع للظل هذه الساعة .

والشيء الذي أثار فضولي ، هو أن برتا كانت تصر على التحدث
معى باللغة الإنجليزية ، وهى لغة اكتسبتها — حسب ما اتضح لى —
عندما كانت تعيش فى بنما ، أو فى كوستاريكو حيث كانت تدير أحد
النوادي الليلية هناك ، وتجوب أواسط أمريكا قبل احترافها البغاء .

وقالت برتا لى أنها عندما كانت فى نيويورك ، تعرفت على رجل اسمه
مستر ونشل .. وكان مستر ونشل هذا عضواً بأحد النوادي الرياضية . ولقد
كان جنتمانا بحق ، عاملها بعطف وحنان ، قدمها إلى زوجته ، ولم يمض
وقت طويل على ذلك حتى كان ثلاثتهم يتوجهون إلى دوفيل ،
وإلى أماكن أخرى كثيرة .

ولم أشك مطلقاً فى هذه الرواية ، لأننى أعرف أن كثير من
الأمريكيين المهاويز أمثال مستر ونشل ، يطوفون بأرجاء العالم من وقت
لآخر ، ويهوون التعرف على البغايا ، وقد تبلغ بهم الهواية إلى حد محاولة
تغيير البغى ، جاعلين منها سيدة فاضلة ، معتقدين أن عملية تحويل البغى
إلى سيدة فاضلة ليست بالمهمة الشاقة أبداً ، ولكن ما أن تبدأ البغى فى
التصرف مثلاً تتصرف السيدة الفاضلة — كما فى حالة برتا — حتى تشق

الغيرة طريقها إلى قلب الزوجة ، وهذه طبيعة لا تتغير عند كل الزوجات .
كانت برتا ترى أن مستر ونشل أمير ابن أمراء ، ولم تكن زوجته
بالفرسة الهرمه هي الأخرى ، وعندما اتفق ثلاثهم على أن يناموا في فراش
واحد ، تألت الزوجة ، ولكن ذلك لم يحل دون نومهم على سرير واحد
بالفعل ، ولم ترى برتا حرجاً ، بل على العكس اعتبرته أمراً طبيعياً .
ولكن مستر ونشل رحل !

رحل ، ومن بعده رحل المال الوفير الذي تركه لبرتا . . بل إن رحيل
هذا المال كان أسرع من رحيل مستر ونشل نفسه .

وباختفاء مستر ونشل ، ظهر في حياتها رجل آخر .

والرجل الآخر كان يدعى رامون . تعرفت عليه برتا في مدريد ،
وكان رامون يشرع في إقامة كباريه ، وكان ينوى أن يعيد إدارته إلى
برتا . ولكن نيران الثورة اندلعت في أسبانيا ، واضطر رامون إلى
الهرب بجلده .

كان رامون نعم الصديق ، وكانت برتا تشق فيه ثقة عمياء ، ولكنه
رحل هو الآخر للأسف ، وإن كانت برتا واثقة من أنه لن ينساها على
الإطلاق ، وأنه سيرسل إليها لتلحق به بمجرد أن تستتب الأمور .
وأخذت برتا تكرر على مسمعى هذه القصة ، وهي تقول :

— نعم أنا متأكدة من أنه سيرسل إلى ...

وكنا نرشف قهوتنا في ذلك الوقت ، وكانت برتا تقص على روايتها

بلغتها الإنجليزية التي اكتسبتها أثناء إقامتها في بنا أو في كوستاريكو ،
وربما في سان سلفادور .

وسادنا الصمت قليلا .

ثم سألتني عن سبب مجيئي إلى باريس، وعما إذا كنت أحسن بالجوع،
فأخبرتها بأنني لست جائعاً بالمرة ، وأنني قد تناولت وجبة دسمة منذ فترة
قصيرة ، وأخبرتها بأمر زجاجة الجعة التي تناولتها أيضاً ، وقبل أن أجيب
على سؤالها الآخر ، اقترحت عليها أن نتناول كأساً من البراندى أو من
أى مشروب كحولى ، فتطلعت إلى فى دهشة مقصودة ، قائلة بتنى لحظة من
الضييق وعدم الإرتياح ، وقلت لنفسى لعلها تفكر الآن فى مستر
ونشل . . مستر ونشل الأمير ابن الأمراء ، وأمثاله . ولذا تعمدت أن
أتى بملاحظة عابرة مؤداها أننى ومستر ونشل ننحدر من عالم مختلف
تماماً ، وأخذت أوضح لها هذه النقطة لتدرك المغزى المقصود ، ثم
أخبرتها أخيراً بما معنى من تقود صراحة ، وقلت لها فى عدم اكتراث
أننى على استعداد لأن أصرف كل ما معنى من تقود .

وعندما وصلنا إلى هذه النقطة من الحديث ، مالت على ، واعترفت
لى بأنها جائعة ، بل وفى غاية الجوع . ولقد أذهلتنى المفاجأة ، لأننى
توقعت أن تقول لى أى شىء غير مسألة الجوع . وعلى أى حال ، فقد
غمرنى إحساس مفاجىء بالسعادة ، وقلت مقترحاً :

-- ما رأيك فى أن نذهب إلى الداخل ونتناول طعاماً ؟

وأنا أعرف أن أى امرأة لا تتردد لحظة فى قبول مثل هذه الدعوة إذا كانت جائعة حقاً ، وهذا شأن معظم النساء . ولكن برتا لم تكن مثل باقى النساء . إنها لم تحلم أبداً بأنه سيأتى اليوم الذى تتناول فيه الطعام فى مطعم نفخ مثل مطعم ماريان . ولماذا لا نذهب إلى أى مطعم آخر ؟ لماذا لا نذهب إلى مطعم عادى ؟ مطاعم رخيصة كثيرة منتشرة بالقرب منا . وعندما قلت لبرتا أن الوقت متأخر جداً ، وأن معظم المطاعم قد أغلقت ، قالت لى أنه لا بأس من المحاولة .

وبدى لى أن برتا قد تخلصت فجأة من آلام الجوع . مالت بجزعها قليلاً إلى الإمام ، وهمست فى أذنى وكأنها تفضى إلى بسر خطير . قالت لى أنها تظن أننى فتى طيب القلب ، ثم أخذت تخطط فى حديثها بينى وبين مستر ونشل ، وبين رامون واثرثورة ، وما إلى ذلك حتى وصلت إلى نقطة الغليان فى القصة عندما كانت تجوب أواسط أميرىكا . إن برتا لم تخلق لكى تكون مومساً . إنها لم تتعود على هذه المهنة ، بل تكرهها من كل قلبها . ومنذ زمن بعيد .. بعيد جداً .. لم تجد واحداً يعاملها معاملة إنسانية .. وإن كان هناك من يعاملها هذه المعاملة الآن ، فهو أنا ، ولن يكون أحد غيرى . وإذا كانت برتا تحس الآن بالسعادة ، فإن مبعث هذه السعادة هو أنها جالسة معى ، ليس إلا .

وعادتها مرة ثانية آلام الجوع . ارتجفت قليلاً ، فدفرت رقبتهـا بالفراء الجاد . القييح ، واستطعت أن ألمح على يديها بشور سوداء .

ویدی لی مسلکها متناقضا عجیبا .

كانت تبسم ، ومع ذلك كانت تحاول أن تبدو أمامی بمظهر
اللامبالية . وكانت تتوجع وتتألم جوعاً ، ومع ذلك كانت تجعلی أحس
بأن معدتها ممتلئة تماماً . وكانت شغوفة بالحديث معی ، ومع ذلك كانت
تؤكد لی أنها لا تهتم . حديثها أيضاً كان متناقضاً .

وخالجنى شعور بأنها مجنونة !

قالت لی منذ لحظة أنها عندما تعطى جسدها لرجل فإنما تعطه
جسداً من الذهب الخالص . ثم وضعت يديها على المنضدة ، وأدارت
راحة كفها وقالت :

— أنظر إلى . . أنظر إلى يداى ..

ثم استطردت تقول بالفرنسية .

— لم أعد جميلة !!

فقلت لها :

— بل أنت جميلة فعلاً .

فقالت دهشة :

— ولكنى لست كذلك . كنت جميلة فى الماضى ، أما الآن

فأنا لست جميلة . أنا الآن تعب . هذه هى المسألة . . أصبحت تعب

من كل شىء ، ولم أعد أصلح لهذه المهنة إطلاقاً . . إننى إمارسها من

أجل كسب العيش .

وراحت تقلب يديها أمامي حتى أراها عن كשב .
وأحسست بأن الوقت قد حان لكي نذهب إلى المطعم الصغير الدافئ
القريب منا الذي حدثتني عنه برتا ، فطلبت منها بصوت عال أن تنهض
للذهاب ، فقامت وهي تقول :

— نعم . . هيا بنا .

وألقت نظرة فاحصة خاطفة على أرجاء الشرفة وكأنها تبحث عن
شخص ما ، ثم همست في أذني بشيء من الرجاء :

— هل يضايقك إذا انتظرتني لحظة ؟

وأفهمتنى أنها مرتبطة بموعد مع عميل لها في أحد المقاهي التي
تقع بنهاية الشارع ، وأن هذا الزبون رجل طاعن في السن ، غريب
الاطوار ، وهي وإن كانت غير واثقة تماما من وجوده هناك لمرور
وقت طويل ونحن نتحدث ، إلا أنها ستحاول أن تذهب إليه ، ورجتني
بأن لا يسبب ذلك ضيقا لي ، ووعدتني بأن تتخلص منه في أسرع وقت
. . وأن تلحق بي على الفور .

وقلت لبرتا أنه يمكنها أن تذهب طالما أنه كذلك يسعدها ،
وعدتها بأن أبقى في انتظارها إلى قدر معين من الوقت ، فإذا لم تتمكن
من العودة ، فلا ضير في ذلك عليها .

وأخذت أرقبها من مجلسي وهي تسير في الطريق ، ثم تتجه مباشرة
إلى المقهى الذي وصفته لي . ولم أكن أتوقع عودتها في حقيقة الأمر ، كما لم

أكن أصدق إطلاقاً أن رجلاً ثرياً عجوزاً غريب الأطوار ينتظرها بالمقهى .
هل كل رجل أمريكي أصبح يبدو مستر ونشل في نظر كل امرأة
متسكعة ؟

وغمرني إحساس مماثل لما قد يصيب مستر ونشل في لحظات حرجة
من حياته مثل هذه اللحظة !

ولدهشتي ، عادت برتا بعد عشر دقائق على وجه التقريب . كان يبدو
عليها مظهر من خاب أمل ، ومظهر من لم يصب بخيبة أمل بعد .
وفي صوت أشبه بالهمس ، قالت لي أنه من النادر أن تجد رجلاً
واحداً يوفى وعده باستثناء مستر ونشل لأن المستر ونشل من نوع آخر ..
إنه لم يخلف وعده قط .. ولا أدري إن كان مستر ونشل قد أوفى بوعده
حين أقسم لها بأن يكتب لها باستمرار وبأن يرسل إليها بتزيد من النقود ،
وقد مر على رحيله ثلاثة أشهر كاملة ولم يصلها منه أى خبر عنه حتى الآن !
وأخذت برتا تقلب حقيبة يدها بحثاً عن بطاقة للسيد ونشل ، أو حتى
عن خطاب بلغة إنجليزية سليمة حتى أكتب لها خطاباً مثله يأتي لها
بالرد .. ولكنها لم تعثر على بطاقة له ، وكل ما استطاعت أن تذكره لي
عنه هو أن يقيم مع زوجته بأحد الأندية الرياضية .

وأتى الجرسون ، فطلبت برتا قدحاً آخرًا من القهوة السوداء المركزة
وقالت وهي تفرك يديها لتجري الدم في عروقها :
— إن القهوة مفيدة جداً للأعصاب ..

وتساءلت إن كان مازال هناك مطعم رخيصاً جميلاً دافئاً يفتح أبوابه
حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟
وغرقت لأذنى أفكر فى مسترونشلى ، وأى ناد رياضى يقيم فيه
هو وزوجته !

وهمست برتا فى أذنى قائلة :

— لا أريدك أن تصرف مبلغاً كبيراً من أجلى . . إننى لا أبالى بما
تملك . . إن الراحة التى أحس بها وأنا أتحدث إليك لهى كل ملاذى . إنك
لا تعرف اللذة التى تحس بها المرأة عندما يعاملها رجل معاملة إنسانية .
وانفجرت تحدثنى عن الرجال الذين عرفتهم فى حياتها . .

برتة عرفت الكثير من الرجال . . عرفتهم فى بنا ، وفى أماكن
أخرى غير بنا . ولكن الأمر لم يكن يعنىها فى شىء . . إن هؤلاء الرجال
لن ينسوها أبداً . . هذا هو كل ما تبغيه . لقد أحبوها من كل قلوبهم
وأحبتهم من كل قلوبها ، وهى عندما وهبتهم جسدها ، كانت تمنحهم
جسداً من الذهب الخالص !

وألقت برتا نظرة سريعة على يديها ، ثم ابتسمت ابتسامة واهنة
ودثرت رقبته بالفراء باحكام ، وكنت أرقبها باهتمام وعطف جم ،
متأثراً بكلماتها البسيطة أيم تأثر ، فهمى لم تقل لى إلا الصدق ،
ولقد اقترحت عليها أن تقبل أن تأخذ ما معى من نقود ، وأن
تعتبر ذلك هدية أو منحة . وأكدت لها أننى لن أطاردها للوفاء بالدين ،

وكنت أهدف من وراء ذلك تسهيل الأمور لها ، وقلت في سرى ،
لعلها تحتاج لأن تبقى بمفردها قليلا ، أو أن تذهب لتناول كأس ، أو
أن تبكي ، ولعل حديثها معى هو الذى دفعنى إلى التفكير فى ذلك ،
فقد كانت تحدثنى كما لو كانت يائسة من الحياة .

وخيل إلى أن برتا قد خلقت برتا أخرى .. برتا أخرى صغيرة وشابة ..
برتا قادرة على حب رجل دون أن تنتظر أن يهبها شئ مقابل هذا الحب .
وكدت أحس ببرتا الثانية وهى تطبق يديها على برتا الحقيقية وتقتلها !
ونجحت برتا فى أن تجعل شخصيتى تتطابق تماما مع شخصية
الرجال الذين أحبهم . . الرجال الذين وهبهم جسدها ، والذين سيظلوا
يدكرونها . ورغبة فى توخى الدقة ، رجوت برتا أن تتحدث معى باللغة
الفرنسية ، وأن تكف عن الحديث باللغة الإنجليزية التى اكتسبتها فى
كوستاريكو حتى لا تفسد على لغة الاستمتاع بأفكارها الأليمة الرقيقة
المحزنة التى كانت تفضفض بها من حين لآخر ، فقالت :

— تريد الحق ؟ لو كنت أتكلم مع رجل آخر غيرك ، لكنت
قد توقفت منذ وقت طويل عن التحدث بالإنجليزية . إن التحدث
بالإنجليزية يرهقنى ، ولكننى معك لا أحس بأى ألم . . وأعتقد أنه
من قبيل الذوق أن تتحدث المرأة باللغة الإنجليزية مع الرجل الذى
يعاملها معاملة إنسانية . صدقنى .. إننى أحيانا أجلس مع رجل بالساعات
دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة . . إنه لا يبالي بمن أكون . . إنه

لا يهتم إلا بجسدى فقط . ماذا تنتظر منى أن أعطى لمثل هذا الرجل ؟
جسنى . . . إننى سخنة نار . . . إننى أتقذ بالفعل .

وناديت على تا كسى ، وطلبت من السائق أن يتوجه بنا إلى مكان
معين فى شارع واجرام .

وأحست برتا ونحن فى التاكس كما لو أنها قد تاهت .
كنا قد تركنا شارع الإيتوال منذ لحظة ، وعرج بنا السائق على
شارع واجرام ، فسألتنى برتا وهى فى حالة ذعر شديد :
— أين نحن الآن . . . ؟ وإلى أين ستأخذنى ؟

فقلت لها :

— إننا فى شارع واجرام . . .

فأخذت تردد فى ذهول :

— شارع واجرام !! شارع واجرام !!

وبدى لى أنها لم تسمع عن هذا الشارع من قبل ، فنظرت إليها
دهشا ، وعند ذلك مالت على ، وأخذت تعضنى بأسنانها . . .
عضضت شفتى ، فتألمت ، ولكنها جذبتنى إليها بشدة ، فأطبقت
بشفتى على شفتيها فى قبلة طويلة ، وكان ثوبها قصيرا فوق الركبة ،
فمدت يدي لأتحسس لحمها البض ، وأخذت تعضنى مرة ثانية . . .
عضضتنى فى فمى ، وفى رقبتي ، وفى أذنى ، ثم خلصت نفسها منى بين
ذراعى بقوة ، وقالت :

— أرجوك .. أجل هذا الموضوع الآن .. فيما بعد .. فيما بعد .
وكان سائق التاكسي قد تخطى المكان الذي حددته ، ولم أعرف
إن كان قد فعل ذلك من باب الذوق أو بسبب سرحانه ، فملت عليه
وطلبت منه أن يعود بنا إلى ميدان وأجرام .

وعندما نزلنا من التاكسي ، كانت برتا تحس بدوار شديد .
كان المقهى الذي وقفنا أمامه نخباً مثل مقهى ماريان تماماً .. وكانت
هناك فرقة من الأوركسترا تعزف الموسيقى ، وكان هناك كثير من
الرواد في الشرفة ، ورفضت برتا أن تدخل إلى المقهى ، فاضطرت إلى أن
أشدها من يدها وأدخلها بالقوة .

وعندما أتى الجرسون ، وأبلغنا بطلباتنا ، إعتذرت برتا بأن
تركني لحظة لتذهب إلى دورة المياه ، وعندما عادت ، أحسست بالعطف
نحوها وأنا أتطلع إلى ملابسها الرثة ومظهرها البائس .

وأرادت برتا أن تشغل نفسها بشيء ما حتى يأتي لها الجرسون بالحساء
فأخرجت محفظة جلدية صغيرة بها أدوات تقليم الأظافر ، وأخذت تؤقلم
أظافرها ، وكان الطلاء قد اندثر من بعض الأماكن ، فبدت الأظافر
أكثر قبحاً مما لو كانت قد تركت بلا طلاء .

ووصل أخيراً الجرسون بالحساء فوضعت برتا المحفظة جانباً ، ووضعت
مجوارها مشط الشعر الذي كانت عالقة به بعض خصل شعرها . وأسرعت
بتناول كسرة من الخبز ، ومسحتها بالزبد ، وناولتها لبرتتا ، فأخذتها مني

وقد اكتسى وجهها بحمرة الخجل عندما وقع بصرى على منظر يديها
القذرتين وآثار النيكتوتين تحيط بأصابعها .. تلك اليدين اللتين قدمتهما
لى من قبل لأراها وكلها ثقة وشجاعة .

وانهمكت برتا فى تساؤل بععض قط الخبز بالزبد إلى أن يأتى لها
الجرسون بطبق اللحم المقدد ، وقد مالت برأسها على المنضدة حتى
تخفى شهيتها النهمة ، وإن كان ذلك لم يحل دون احساسها بالضيق .

وبعد فترة قصيرة من الوقت ، صوبت عيناها إلى عيناى ، ثم وضعت
يدها فوق يدى ، وقالت بالفرنسية :

— اسمع يا عزيزى ..

ولكنها سرعان ما عادت إلى إنجليزيتها المكسرة :

— لن أنسى طريقة حديثك معى .. إن هذه الطريقة تساوى أكثر
من ألف فرنك .

وترددت لحظة قبل أن تهتدى إلى كلماتها ، ثم استطردت :
— ولكنك لم تحدثنى عن الموضوع حتى الآن .. إذا كنت تحب أن ..
فقاطعتها :

— أجل هذا الموضوع الآن .. أرجو أن لا تظنى أننى غير راغب فىك ..
إن ذلك قد يبدو كذبا وتفاقا .. وإنما لنؤجل هذا الموضوع الليلة على الأقل .
فأرخت عيناها من عيناى ، وقالت :

— برتا تفهم ما تريد أن تقول .. برتا لا تحب أن تفسد مشاعرك ،
ولكن ...

وتناولت حقيبة يدها ، وأخذت تفتش عن قصاصة من الورق ، وهي تقول :
— ما هو الوقت الذى يناسبك يا عزيزى ؟ متى تحب أن ترانى ؟
ليس من المهم أن تدفع لى .. هل تفهم ؟ متى يمكنك أن تتصل بى ؟
غداً .. ؟ يسعدنى أن ألتقى بك على العشاء ...

وكانت ما تزال تبحث فى حقيبتها عن قصاصة من الورق ، فمزقت
لها قطعة من ورق المنشفة التى كانت على المنضدة ، وناولتها إياها ، فأخذتها
منى وكتبت فوقها اسمها وعنوانها بحروف كبيرة ، واكتشفت
من أول وهلة أن اسمها من أصل بولندى ، أما الشارع فإننى لم استطع أن
أهتدى إليه ، ولا أخال أننى سمعت عنه من قبل ، ولما سألتها عنه قالت :
— ألا تعرفه ... ؟ إنه متفرع من ميدان سان بول ... ولكن
أرجوك .. لا تحاول أن تزورنى فى الفندق ، فأنا لا أقيم هناك باستمرار .
وألقيت نظرة أخرى على اسم الشارع ، ولكننى لم أستطع أن أذكر
أننى سرت فيه مرة واحدة فى حياتى ، أو حتى سمعت عنه ، لا فى ميدان
سان بول ، ولا حتى فى أى ميدان آخر من ميادين المدينة .

وقلت لبرتا :

— إذن فأنت بولندية ... ؟

— لا .. أنا سويسرية . ولدت فى بولندا ، على أن الأسم المدون
عندك ليس اسمى الحقيقى .

وأحسست ونحن نتناول الطعام بوجود شخص ما يجلس بالقرب منا .

كان رجل متقدم في العمر ، فرنسي الجنسية ، وكان من الواضح أنه مستغرق في قراءة جريدته ، وإن كنت قد ضبطته أكثر من مرة يخلتس النظرات إلى برتا من فوق جريدته ، وأحسست من وجهه أنه رجل طيب القلب ، وأنه من الأثرياء . ولا شك أن برتا كانت هي الأخرى تحس بوجوده ، وأنها كانت تخلتس النظرات إليه وترقبه من وقت لآخر .

ونازعتني رغبة قوية في معرفة الطريقة التي ستصرف بها برتا في مثل هذه الحالات ، فاعتذرت لها بحجة ذهابي إلى دورة المياه ، وعندما عدت إلى مجلسي بعد فترة قصيرة ، أدركت من الطريقة التي كانت تنفث بها دخان سيجارتها أن كل شيء على ما يرام ، وأن الأمور تجري مجرى حسناً . وحانت مني التفاتة ناحية الرجل الفرنسي المهدب ، فوجدته غارقاً تماماً في جريدته ، فقلت في نفسي بالفرنسية :

— أخيراً جاء الزبون

هل ضايقتني ذلك ؟

أبداً ...

كان كل شاغلي أن أنسحب بطريقة دبلوماسية ، وأن أجد لنفسي مخرجاً من هذا الموقف دون أن تحس برتا أنني وجه آخر لمسترونشل ولحسن الحظ ، مر بجاني الجرسون ، فسألته عن الوقت ، وعندما عرفت أنها قاربت الواحدة ، قلت لها :

— أتا مضطر لأن أرحل الآن .. لقد تأخرت كثيراً .

وهنا وضعت يدها فوق يدي، ونظرت إلى، ثم ابتسمت ابتسامة من يفهم الآخر، وقالت لي :

— لا داعي يا عزيزي لأن تخلق الأعذار .. أنت رجل طيب القلب، ومتفهم جداً لحقائق الأشياء، وأنا لا أدرى كيف أشكرك، ولكن .. أرجوك .. لا تتركني بهذا الشكل .. إنه يمكنه الانتظار .

وخرجت كلمة « أرجوك » من شفيتها بشيء من والاستعطاف .
وأومأت برأسها ناحية الرجل الفرنسي، وقالت :

— تعالى تمشي قليلاً ..

وقمنا تمشي في أحد الشوارع الجانبية، والصمت يكتنفنا من كل جانب . وبعد أن سرنا قليلاً، قالت لي :

— زعلان .. أليس كذلك؟

فقلت :

— بالطبع لا ... وهل أستطيع أن أزعل منك ؟

فقالت :

— قليل من الرجال من يستطيعون التصرف مثلك .

وأخذت تجذبني إليها بشدة، حتى أن ساقى كانت تصطك بساقها ونحن نسير في الشارع، وقلت لها :

— أغلب الظن أنه ليس من العسير عليك أن تمارسي ذلك بدون حب !
وسادنا الصمت مرة أخرى، ولم تتبادل كلمة واحدة حتى بلغنا

نهاية الشارع . كنت أدرك أن ذهنيها مشتت ، وأن الأفكار تدهشها .
وعندما بلغنا شارعاً جانبياً يغط في ظلام دامس ، جاذبتني من يدي ،
وقالت لي :

— تعالى نسير في هذا الشارع ..

وظلت تجذبني إليها بشدة حتى التقصت ساقى بساقها تماماً . وتركت
لها نفسى لتقودني بين الحوائط المظلمة والمباني الصماء ، وكأنني في حلم
جميل لا أريد أن أفوق منه .

كان صوتها حنوناً ، وكانت الكلمات تتناثر من بين شفقيها كالزبدية .
كلمات واضحة مفهومة المعاني ، ولكنني لا أستطيع أن أذكرها
الآن ، ولا حتى أن أصدق أنها كانت تعي أى كلمة مما كانت تقول .
لقد كانت تتحدث إلي وهي في حالة إثارة كما لو أن هناك مصيبة حلت فوق
رأسها ، وخيل إلي أنها كانت تتحدث إلي نفسها أكثر مما تتحدث إلي .
وظلت تضغط بأظافرها الطويلة على ذراعى طول الوقت ، وكأنها
تريد أن تطفى بفعل الإحساس بالجسد مزيداً من المعاني على كلماتها .
وأخيراً وقفنا صامتين بلا حراك .

وصاحت بي قائلة :

— لماذا لا تطوقني بذراعيك ؟ لماذا لا تقبلني مثلما قبلتني ونحن

بالتاكسي ؟

وسحبته من يدها ناحية باب منزل ، ووقفت مستندة بظهرها على

الباب ، فطوقتها بذراعى بكل قوة ، وأخذت تتحسس أذنى بأسنانها ، فتوقعت أن تعضنى من جديد ، فابتعدت عنها بحركة تلقائية ، ولكنها أمسكت بى من خصرى وجذبتنى إليها فى عنف ، وهمست قائلة:

— برتا تعرف كيف تصنع الحب . ما عليك إلا أن تأمر ، وبرتة تنفذ على الفور . آه . . . إنك لا تعرف ما فعلته لبرتة الليلة . . . إنك لا تعرف أبداً .

ومرت لحظة ونحن ملتصقين ببعض على باب المنزل كأنها لحظة أبدية خالدة . لم أحاول أن أقيد حركتها . تركتها تحتوينى بصدرها ، وتعضنى بأسنانها ، وتعلق برقبتي مثلما تعلق روح غريق . وهزتنى ، وثرثرت بكلمات غير مفهومة وكأنها طفل جريح . وانتابتنى رهبة شديدة .

هل حاولت استغلال ضعفها ؟

هل حاولت انتهاز فرصة وقوعها فى هذا المأزق ؟

وانفصل جسدى عن جسدها أخيراً ، وما كان ذلك ممكناً إلا بوجود قوة جبارة .

وابتعدنا عن الباب . . .

والوقوف أشبه بما لو كنا قد وصلنا إلى منتصف طريق مجهول ليشد كل منا على يد الآخر متمنياً له حظاً سعيداً . . .



ومرت علينا لحظة ونحن ملتصقين ببعض
على باب المنزل كأنها لحظة أبدية خالدة .

وشددت على يدها بالفعل ، وقلت :

— وداعاً . .

وأدبرت لها ظهري ، وسرت خطوات قليلة ليحتوييني الصمت المطبق الذي يسود الشارع .

ولا أدري لماذا إلتفت إلى الوراء في ذلك الوقت ، لأنني حيناً إلتفت إلى الوراء رأيت برتا واقفة حيث تركتها . . فوقفنا هكذا ننظر إلى بعض في بلاهة .

كان من المستحيل أن أقرأ الكلمات المرسومة على وجهها ، وإن كنت قد استطعت أن أتكهن بما يحمل وجهها من معاني .
عدت إليها ..

كان من الضروري أن أقول لها شيئاً ، وأى شيء .
وتمنيت أن أقول لها :

— خذيني . . افعل بي ما تشائين ، ولكن لا تركيني .
إلا أنني قلت :

— أليس من المحتمل أن يكون قد غادر المقهى هذه الساعة ؟
فقلت :

— لا . إنه ما زال هناك .

ولكن ضعف صوتها فضح كذبتها ، فقلت :
— اسمعي يا برتا . . .

ثم دسست يدي في جيبى وأخرجت مجموعة من الأوراق النقدية
وضعتها في يدها ، وقلت :

— أعرف كيف تسير الأمور في مثل هذه الحالات . خذى هذا لك
وأحسست وأنا أدس الأوراق في يدها ، أننى أدس أوراقاً ماتت في
فصل الخريف . على أننى قلت :

— والآن . . وداعاً يا برتا ! .

ثم أضفت بالفرنسية :

— حظاً سعيداً . . .

وابتعدت عنها . وأخذت أسرع في خطاى .

وما كدت اصل إلى نهاية الشارع ، حتى سمعتها تنادى بأعلى
صوتها ، فاستدرت إلى الوراء ، وإذا بي أجدها تركض خلفى ، وهى تلهث
وعندما اقتربت منى قالت :

— لقد أخطأت . .

ولوحت بيدها بورقة نقدية كبيرة ، ثم قالت :

— أنظر . . .

فقلت لها :

— ولكننى لا أرى أى خطأ في ذلك . . إنها لك .

فصاحت دهشة بالفرنسية :

— يا إلهى ! ! يا إلهى ! ! ولكن هذا كثير . . هذا كثير

جداً . . إنك لم تقصد ذلك بالطبع .

واقتربت مني ، وأمسكت بذراعاي ، وخرت أمامي جاثية على
ركبتها ، فرفعتها إلى أعلى ، وصحت بها في قسوة :

— ماذا دهاك يا برتا ؟ ألم يعاملك رجل من قبل بمثل هذا العطف ؟
ولا واحدا يا برتا . . ؟

وذابت كلماتي وسط الظلام الصامت .

ولم أستطع أن أعتذر لها . كان حلقى جافاً ، وأحسست بأن الوقت
لا يتسع لمزيد من الكلام !

ولبثت واقفة أمامي . . يداها تنحني بهما وجهها ، وجسدها يتشنج
بالبكاء ، ومنظرها رهيب .

وكنت أحس بدموعها تصرخ وتصيح وسط الصمت المطبق الذي
شابه صمت القبور .

وتصارعت في نفسي أحاسيس شتى . .

أردت أن أطوقها بذراعاي . . وأردت أن أقول لها شيئاً . . وأردت
أن أخفف من العذاب الذي تتلظظ فيه . ولكنني لم أقوى على شيء ،
فلقد أحسست بأنني قد تحجرت في مكاني !

وأردت لها ظهري ، وجريت بعيداً عنها بأقصى سرعة ممكنة حتى
غاص صوت نحيبها في لجة الشوارع المتلاؤة بالبراقة .

* * *

أهم مصادر الكتاب

- (1) Willism A. Gordon, *The Mind and Art of Henry Miller*, Lowe and Brydone (Printers) Limit, London, 1968.
 - (2) Lawrence Durrell, *The Best of Henry Miller*. Heinemann, London, 1961.
-

أهم مؤلفات هنري ميلر

- 1) Tropic of Cancer, 1934. مدار السرطان ١٩٣٤
- 2) Aller Retour New York, 1935. العود إلى نيويورك ١٩٣٥
- 3) Black Spring, 1936. الربيع الأسود ١٩٣٦
- 4) Max and The White Phagocytes, 1938. ماكس والبلاعم البيض ١٩٣٨
- 5) Tropic of Capricorn, 1939. مدار الجدي ١٩٣٩
- 6) The Cosmological Eye, 1939. عين الكون ١٩٣٩
- 7) The World of Sex, 1940. عالم الجنس ١٩٤٠
- 8) The Colossus of Maroussi, 1941. عملاق ماروسى ١٩٤١
- 9) The Air-Conditioned Nightmare, 1945.

- كابوس مكيف الهواء ١٩٤٥
- 10) Remember to Remember, 1941.
- تذكر أن تتذكر ١٩٤١
- 11) Sexus : 2 vols., 1949.
- الجنس : جزءان ١٩٤٩ (الكتاب الأول من ثلاثة :
The Rosy Crucifixion)
على خشبة الصليب الأحمر)
- 12) Plexus : 2 vols., 1953.
- الضفيرة ١٩٥٣
- 13) A Devil in Paradise, 1956.
- ابليس في الجنة ١٩٥٦
- 14) Nexus, vol. 1.1959.
- الشبكة ١٩٥٩

فهرس

صفحة	(أ) الدراسة
١٧ - ٧	(ب) مقدمة
٧	١ - ملحة فلسفية
١٨	٢ - نشأة الكاتب
٢٥	٣ - ميللر الشجاع
٢٩	٤ - ميللر الطفل والمدينة المعقدة
٣٤	٥ - ميللر وقضية الشكل الفني
٣٧	٦ - ميللر كاتب الجنس المكشوف
٤٧	٧ - المرأة في أدب ميللر
٥٥	(ج) ثلاث قصص من روائية
٦٢	١ - تماكس
١٤٥	٢ - بيكودريبي
١٧٣	٣ - برقا
١٩٨	(د) أهم مصادر الكتاب

هذا الكتاب

يرتبط ذكر هنري ميللر بالأدب الجنسي المكشوف . والمحاولة التي قام بها لتصوير الجنس وتشريحه في رواياته الخالدة مثل «مدار السرطان» و«مدار الجدى» و«ثلاثية» «على خشبة الصليب الأحمر» ، جعلته يتربع على عرش الأدب المكشوف بلا منازع . لقد تحول الأدب الفاضح على يديه من مجرد كونه أدباً يهدف إلى إحساس الإنسان بالإشمئزاز من الجنس والخوف منه لإرتباطه بعقدة الذنب والخطيئة ، إلى كونه جزءاً من الحياة ، دون أن يفتقر أى من العناصر الأساسية فيه ، وهو نفس ما يحدث للحب والجنس . ولذا، فإن كتاباته الجنسية ترتفع فوق مستوى الابتذال، وتكون فناً رائعاً مصداقاً للحياة .

وفلسفة ميللر عن الجنس هي أن الجنس والحب توأمان لا يفترقان ، قد يتعارضان ويتناقضان ولكنهما متلازمان دائماً . بل إن الجنس يجب أن يقوم أولاً وبكامل طاقته قبل أن يشترك الإنسان في أى علاقة حب . وإن ربط الحب بعلاقة جنسية أو العكس ، فهو قادر على أن يسبب خطر القضاء على القدرة . والعجز الجنسي في العصر الحديث لا يرجع سببه إلى تذوق الجنس وممارسته ، وإنما إلى تأكيد صفات الحب والفضيلة وقدسيتها الزواج ، وطهارة الأمهات والشقيقات . والعالم اليوم قد نضب مثلاً تنضب البغى ، وليس هناك أمل إلا في الجنس ليعيد أصلاً ما ألفه الناس .

وكتاب «شيخ الأدب الجنسي المكشوف» لا يكتفى بالنظر في الجنس بل يذهب إلى ما وراءه ، فهو يقدم لنا «ماكس» اليهودى البائس مضاجع الذكور ، و«برتا» المومس الغير فاضلة التي تؤم جسدها لرجل إنما تعطيه جسداً خالصاً من الذهب .

والكتاب بعد ذلك كله دعوة إلى أدب جديد في عصر ج

